العطر الوردي

شرح لامية ابن الوردي

في الحكم والأخلاق

الطبعة الثانية - مزيدة ومنقحة
١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م



الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة- مجمع كابيتول مول- السرداب- محل ٢٤
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
(الكويت)
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447

العطر الوردي
شرح لامية ابن الوردي
في الحكم والأخلاق

تأليف
د. مصطفى بن كرامة الله مخدوم
أستاذ مشارك في قسم الفقه بكلية الحقوق
بجامعة طيبة - المدينة المنورة

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

مُقَـدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكمل الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه الطاهرين. أما بعد:

فإن الأزمة الأخلاقية ضاربة الجذور في أنفسنا، عميقة الآثار في حياتنا، مما يوجب على دعاة الإصلاح العناية بالجانب الأخلاقي، والاهتمام به كثيراً في ميدان التربية.

وهناك علاقة وطيدة بين الإيمان والأخلاق، والعقيدة والتعامل، فالمسلم الحق والمؤمن الكامل، ينبغي أن يكون حسن الأخلاق، رفيع الأدب، جميل الشمائل.

والإيمان الحق والعقيدة الصحيحة تظهر آثارها في سلوك الإنسان، وتعامله مع الآخرين، فالخلق الرفيع والأدب الجميل علامة على كمال الإيمان، وحسن الفهم للإسلام.

وقد دل على هذا الترابط قوله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[1].

وسئل صلى الله عليه وسلم: أي الإيمان أفضل؟. فقال: «خلق حسن»[2] .

---

(١) رواه أبو داود ٥/ ٦٠ برقم: ٤٦٨٢، وأحمد ٢/ ٢٥٠، والترمذي ٤/ ١٣٥ برقم: ١١٦٢ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) رواه أحمد ٤ / ٣٨٥.

لقد كانت الأخلاق الكريمة، من أعظم المميزات في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أيام الجاهلية، وكانت من أسباب الاصطفاء الإلهي له بالنبوة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، جعل التحلي بمكارم الأخلاق مقصد دعوته، وغاية بعثته، وهدف رسالته، فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

وهذه اللامية لابن الوردي محاولة جادة، ودعوة صادقة، للتحلي بمكارم الأخلاق المستفادة من ينبوع الشريعة، وتجارب الحياة.

وقد اجتهدت في توضيح معانيها، وبيان مدلولاتها، وتحديد جواهرها بحسب الطاقة.

وفي ثنايا الشرح فوائد لغوية، ومعان إيمانية، وآداب شرعية، وقصص تاريخية، تفيد القارئ، وتدفع عنه الملل، وتكسبه بعض الفوائد العلمية.

أسأل الله تعالى أن يثيبني على ما فيه من الصواب، وأن يتجاوز عما فيه من الخطأ، إنه جواد كريم.

المؤلف

(١) رواه أحمد ٢ / ٣٨١، ومالك في الموطأ بلفظ قريب ٢ / ٩٠٤، والحاكم في المستدرك ٢ / ٦١٣ وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وسكت عنه الذهبي، وقال الحافظ ابن عبد البر: «هذا حديث مدني صحيح» التمهيد ٢٤ / ٣٣٣.

اللاميات في الشعر العربي

اللامية نسبة إلى حرف اللام، وهي القصيدة التي يكون رويُّها حرف اللام.

والقصائد اللامية كثيرة الشيوع في الشعر العربي، وتقاربها في الكثرة النونية والميمية؛ وذلك لحسن جرسها، وجمال وقعها.

والنون أسهل القوافي، والميم أحلاها وأسهلها مخرجاً، وتمتاز بكثرة الكلمات المنتهية بها.

ومن أشهر اللاميات في التراث العربي ما يلي:

١- لامية العرب للشنفرى الكهلاني، وأولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قومٍ سـواكم لأميلُ

وهي قصيدة مكونة من ٦٨ بيتاً، ولها شروح كثيرة، منها:

- شرح أبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب.
- أعجب العجب لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
- شرح مؤيد بن عبد اللطيف النَخْجُواني[1].

٢- لامية امرئ القيس الكندي -من شعراء الجاهلية-، وهي إحدى المعلقات المشهورة، وأولها:

قفـا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل بسِـقْط اللوى بين الدخول فحوملِ

(١) نسبة إلى بلدة نخجوان من بلاد أرمينيا أو أذربيجان، ويقال لها: نشا ونشوى أيضا. انظر: الأنساب ٥/ ٤٩٠- القاموس المحيط ١٧٢٥- معجم البلدان ٥/ ٢٧٦- تاج العروس٣٦/ ٢٢٧.

٣- اللامية لكعب بن زهير -رضي الله عنه-، وهي قصيدة مكونة من ٥٧ بيتاً، وأولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

ولها شروح كثيرة، منها:

● شرح ابن هشام النحوي، ت ٧٦١هـ، وعليه حاشية للشيخ عبدالقادر البغدادي، ت ١٠٩٣هـ، وشرح أبي زكريا التبريزي، ت ٥٠٢هـ، وشرح الإمام السيوطي، ت ٩١١هـ.

٤- لامية العجم لمؤيد الدين الطغرائي، ت ٥١٣هـ، وقيل ٥١٥هـ، وهي قصيدة مكونة من ٥٩بيتاً أو ٦١ بيتاً في وصف حاله وزمانه، وأولها:

أصالة الرأي صانتني عن الخَطَلِ   وحِليةُ الفضل زانتني لدى العطل

وقد اعتنى بها الأدباء، وشرحها جماعة من العلماء، ومنها:

● الغيث الذي انسجم(١) في شرح لامية العجم، للشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت ٧٦٤هـ.

وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ عبد الرحيم العباسي ت ٩٦٣هـ.

واختصره الشيخ كمال الدين الدميري ت ٧٣٩هـ؛ لأن الصفدي استطرد في شرحه، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة.

● شرح الإمام أبي البقاء العكبري ت ٦١٦هـ.

● إيضاح المبهم من لامية العجم لابن جماعة النحوي.

(١) وضبط بالغيث المسْجَم، وبالغيث المسجم المنسجم، أي المنصب والدائم. انظر: هدية العارفين ٥/ ٥٦٣- أسماء الكتب لابن رياض زاده ٢١٩- تاج العروس٣٢/ ٣٤٩.

● شرح الشيخ حسين الكفوي، الذي جمعه من الشروح السابقة.

٥- لامية الأفعال لابن مالك الأندلسي، وهي في علم التصريف، وأولها:

الحمـد لله لا أبغـي بـه بـدلا حمـدًا يبلّغ من رضوانه الأملا

وقد شرحها ابن الناظم بدر الدين، كما شرحها أبو عبد الله محمد بن عباس التلمساني، وسماه: «تحقيق المقال وتسهيل المنال».

وشرحها أيضاً محمد بن عمر الحضرمي، وسماه «فتح الأقفال وضرب الأمثال».

٦- لامية القراءات لابن مالك الأندلسي، وهي على وزن الشاطبية وله فيها زيادات، واجتنب فيها رموز الشاطبي.

٧- اللامية للشيخ مؤيد الدين بن صاعد الصوفي، أنشأها مخاطباً نفسه، وأولها:

لا الخيـل تنفع أهليهـا ولا المال ولا يضر ذوي التحقيق إقلال

٨- لامية الروم لمحمد بن محمد المعروف بابن الحكيم الحلبي، وأولها:

حتـام أنظم من دمعي ومن غزلي أدلـة وحبيب القلب معتزلي

٩- اللامية في القراءات لأبي حيان الأندلسي ت ٧٤٥هـ، عارض بها الشاطبية، وحذف رموزها، وصرح بالأسماء، وقد أشار إليها في مقدمة البحر المحيط.

١٠- لامية ابن الوردي -وهي موضوع هذا الكتاب- وتسمى: «نصيحة الإخوان ومرشد الخلان»، وهي قصيدة في الوصايا والحكم والآداب، كما قال فيها:

أي بني اسمع وصايا جمعت حكما خصت بها خير الملل

وتتكون القصيدة من ٧٦ أو ٧٧ بيتاً، مع اختلاف يسير في ترتيب الأبيات، وهي على بحر الرمل، وأجزاؤه ستة، وهي:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

وذكر الزركلي أنها لم تكن في ديوانه، فأضيفت إلى المطبوع منه[1].

قلت: ونسبتها إليه أمر مشهور متداول لم يطعن في ذلك أحد.

وغالب الظن أن ابن الوردي قد استوحى أصل هذه القصيدة من قصائد الشعراء قبله، كقصيدة لبيد بن ربيعة، وهي مثل لامية ابن الوردي في وزنها ورويها، وكثير من معانيها، وفيها يقول:

إن تقوى ربنا خير نفلْ وبإذن الله ريثي وعجلْ

أحمد الله فلا نِدَّ له بيديه الخير ما شاء فعلْ

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلْ

أعمل العيس على علاتها إنما يُنجح أصحاب العملْ

وإذا رمت رحيلا فارتحل واعص ما يأمر توصيم الكسلْ

واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزري بالأملْ

غير ألا تكذبنها في التقى واخزُها بالبر لله الأجلْ

كل شيء ما خلا الله جلل والفتى يسعى ويلهيه الأملْ

(١) انظر: الأعلام٥/ ٦٧.

وهي قصيدة طويلة مكونة من ٨٥ بيتاً تقريباً، مذكورة في ديوانه.

وكقصيدة البحتري في مدح أبي جعفر الطائي:

قالت الشيبُ بدا، قلت: أجلْ   سبق الوقتَ ضراراً وعَجلْ

ومع الشيب على عِلّاته   مهلة للهو حيناً والغزلْ

خيّلت أن التصابي خرق   بعد خمسين، ومن يسمع يخلْ

أترى حبي لسعدى قاتلي   وإذا ما أفرط الحبُّ قتل

خطرت في النوم منها خطرة   خطرة البرق بدا ثم اضمحل

إلى أن قال:

نطلب الأكثر في الدنيا وقد   نبلغ الحاجة فيها بالأقلْ

وإذا الحرّ رأى إعراضة   من صديق صد عنه أو رحلْ

وهي قصيدة مكونة من أربعين بيتاً، على بحر الرمل، وهي تشابه لامية ابن الوردي في بعض معانيها الأخلاقية، لكنها تختلف عنها في المقدمة، فالبحتري يدعو فيها إلى اللهو والغزل والتصابي، بينما ابن الوردي يدعو فيها إلى العفة والتقوى، وما أراه إلا قصد معارضة البحتري، ومناقضة مقدمته.

وكل أديب منصف يدرك أن لامية ابن الوردي أجمل الثلاثة ألفاظاً، وأحلاها بياناً، وأقواها مضموناً.

١١- لامية الشاطبي في القراءات السبعة، وتسمى: «حرز الأماني ووجه التهاني»، وهي قصيدة مباركة، اشتهر ذكرها، وطار صيتها، بسبب

إخلاص ناظمها، وصلاح نيته -نحسبه كذلك-، وفيها يقول:

وناديت اللهم يا خير سامع أعذني من التسميع قولا ومفعلا

ومنذ صدورها إلى اليوم صارت هي المعتمدة في هذا العلم، وهجر الناس ما سواها.

وقد انتقد بعض العلماء فيها رموز القراء، ورأوا فيها نوعًا من الألغاز، فنظموا في العلم نفسه منظومات أخرى، على القافية نفسها، وتجنبوا فيها الرموز، وصرحوا فيها بالأسماء، لكنها لم يكتب لها القبول والانتشار ما كتب لقصيدة الشاطبي، والله يفعل ما يشاء.

١٢- اللامية للشيخ خليل الأقفهسي ت ٨٢٠هـ، ناظر فيها لامية الطغرائي، وجاء بها على وزنها أيضاً، وأولها:

دع التشاغل بالغزلان والغزل يكفيك ما ضاع من أيامك الأُوَلِ

١٣- لامية الشرف وسراج الغرف، للشيخ عمر عبد الوهاب القادري الحلبي، ت ١٠٢٤هـ، وهي قصيدة مكونة من ٦٥ بيتاً في المواعظ، وفيها مصطلحات صوفية [١].

(١) انظر: كشف الظنون ٢/ ١٥٣٦.

شروح لامية ابن الوردي، والقصائد المتعلقة بها

قام جماعة من الأدباء والعلماء بشرح اللامية والتعليق عليها، ومن ذلك:

١ - «فتح الرحيم الرحمن»: للشريف مسعود بن الحسن القناوي الشافعي، وهو شرح مفيد، طبع مرات عديدة، آخرها طبعة دار الفكر ١٤١٢هـ.

ولكن عليه بعض الملحوظات منها:

- الاستطراد والخروج عن المقصود.
- ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة دون تنبيه.
- ذكر بعض الإسرائيليات والقصص الخرافية.
- التكلف في الدفاع عن المقالات الفاسدة لابن عربي وغيره.
- ترك المعاني الظاهرة لبعض الأبيات.
- تعميم ما لا يصح تعميمه من المعاني.

وبالجملة هو شرح حسن، وقد استفدت منه كثيراً.

٢- «العرف الندي»: للشيخ عبد الوهاب بن عبد الله الخطيب الغمري، فرغ منها سنة ١٠٣٠هـ[1].

٣- شرح اللامية للشيخ محمد بن تقي الدين الزهيري الدمشقي، ت: ١٠٧٦هـ[2].

(١) إيضاح المكنون ٤ / ٦٥٢، ومنه نسخة في المحمودية بالمدينة.

(٢) انظر: خلاصة الأثر ٣ / ٣٣٢ - نفحة الريحانة ١ / ٣٧٨.

٤- شرح اللامية للشيخ خليل بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الحنفي الشهير بالفتال، ت ١١٨٦هـ[١] .

القصائد المتعلقة بلامية ابن الوردي:

١- للأديب عبد الرحمن الملاح تخميسة ضمنها لامية ابن الوردي، نقل عنه القناوي في بعض المواضع.

٢- للشيخ محمد الكفيري الحنفي الدمشقي تخميسة للّامية سماها: «العرف الندي في تخميس لامية ابن الوردي»[٢].

٣- وللشيخ علي بن عبدالله الأزهري الشهير بالطحان ت: ١٢٠٧هـ لاميتان على محاكاة لامية ابن الوردي[٣].

(١) سلك الدرر ٢ / ٩٩.
(٢) سلك الدرر ٤ / ٤٢- هدية العارفين ٦/ ٣١٤.
(٣) هدية العارفين ٥/ ٧٧١.

ترجمة ابن الوردي

نسبه وولادته ونشأته:

هو الشيخ زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري، المعروف بابن الوردي، يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه، كما قال في لاميته هذه:

مع أني أحمد الله على ... نسبي إذ بأبي بكر اتصل

ولد في المعرة زمن المماليك، عام ٦٨٩هـ، وذكر الزركلي أن ولادته عام ٦٩١هـ[١].

نشأ بحلب من بلاد الشام، وتفقه بها حتى فاق الأقران.

شيوخه:

ذكر الحافظ ابن حجر أنه أخذ عن القاضي شرف الدين البارزي بحماة، وعن الفخر خطيب جبرين بحلب[٢].

وذكر غيره من المؤرخين أنه أخذ عن صدر الدين محمد بن زين الدين عثمان.

صفاته:

كان عالماً باللغة والنحو والفقه والأدب والتاريخ، كما تدل على ذلك مصنفاته المتنوعة، وكان معروفاً بالزهد والورع وحسن الأخلاق، وله مهابة في نفوس الناس.

---

(١) الأعلام ٥/ ٦٧.

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ١٩٥.

أعماله:

تولى القضاء في منبج وشيرز، وناب فيه بحلب عن الشيخ ابن النقيب، ثم ترك ذلك كله، وعزل نفسه لمنام رآه، وعاتب ابن الزملكاني على تولي القضاء بقصيدة مشهورة، وله أبيات في ذم القضاء والتحذير منه في ديوانه ولاميته أيضاً، ثم اشتغل بالتعليم والتأليف حتى شاع ذكره، وطار صيته، قال في شعره:

إني تركت عقودهم وقروضهم ... وفسوخهم والحكم بين اثنين

ولزمتُ بيتي قانعًا ومطالعًا ... كتب العلوم وذاك زين الزين

أشهر مؤلفاته:

له مؤلفات حسنة في فنون عديدة منها:

١- «البهجة الوردية»، وتسمى أيضاً «بهجة الحاوي»، وهي قصيدة مكونة من ٥٠٦٣ بيتاً، نظم فيها الحاوي في فقه الشافعية.

٢- «تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة»، اختصر فيه ألفية ابن مالك في ١٥٠ بيتاً، وشرحه، وقال عنه الزركلي: «نثر فيه ألفية ابن مالك في النحو»[١].

٣- «التوضيح»، شرح فيه ألفية ابن مالك.

٤- «ضوء الدرة»، على ألفية ابن معطي.

٥- أرجوزة غزلية ضمنها ملحة الإعراب للحريري، سميت بالنفحة في بعض المصادر.

(١) الأعلام ٥/ ٦٧.

٦- منطق الطير في التصوف والأخلاق.

٧- «تتمة المختصر في أخبار البشر»، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، جعله ذيلاً لتاريخ ابن كثير وخلاصة له، قاله الزركلي.

٨- المسائل الملقبة في الفرائض، وسماها ابن حجر «الرسائل المهذبة».

٩- أرجوزة في تعبير المنامات، وذكر الزركلي أنها ألفية مطبوعة.

١٠- ديوان شعر مطبوع، بتحقيق د. أحمد فوزي الهيب، ونشرته دار القلم بالكويت عام ١٤٠٧هـ.

شعره:

شعره رقيق، له حلاوة، وعليه طلاوة، تدل على ذوق رفيع، وحس مرهف، لا تحس عند قراءته بالملل والسآمة؛ لحسن اختياره الألفاظ، وجميل تصرفه في المعاني، حتى في الشعر التعليمي الذي يتعلق بمسائل فقهية، وقواعد نحوية، كما قال الحافظ ابن حجر(١): «وأقسم بالله لم ينظم أحد بعده الفقه إلا وقصرّ دونه».

ووصف ابن السبكي شعره بأنه أحلى من السكر المكرر، وأعلى قيمة من الجوهر(٢).

وقال ابن شاكر الكتبي: «نظمه جيد إلى الغاية، وفضله بلغ النهاية»(٣).

وقال ابن العماد: «ونظمه في الذروة العليا والطبقة القصوى..»(٤).

وله اقتباسات وملح لطيفة في شعره، كقوله:

(١) الدرر الكامنة ٣/ ١٩٥

(٢) طبقات الشافعية ١٠/ ٣٧٣.

(٣) فوات الوفيات ٢/ ١٩٥.

(٤) شذرات الذهب ٦/ ١٦١.

ووعـدت أمس بأن تزور فلم تزر فغدوتُ مسلوب الفؤاد مشتتا
لي مهجـة في النازعـات وعَبْـرة في المرسـلات وفكـرة في هل أتى

وقال الصفدي عن شعره: «أسحر من عيون الغيد، وأبهى من الوجنات ذوات التوريد»، لكنه مع هذا الثناء ادّعى أن ابن الوردي اختلس معاني من شعره، مستشهداً بقول ابن الوردي:

وأسرقُ مـا أردتُ مـن المعـاني فـإن فُقْتُ القديمَ حمدتُ سيري
وإن سـاويتُه نظـماً فحسبي مساواة القديم وذا لخيري
وإن كان القديـمُ أتـمَّ معنـى فهـذا مبلغـي ومطـار طـيري
وإن الدرهـمَ المـضروبَ باسـمي أحـبُّ إلى مـن دينـار غـيري

قال الحافظ ابن حجر عن هذه الدعوى: «ولم يأت بدليل على أن ابن الوردي هو المختلس، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك...»[(١)].

قلت: استفادة ابن الوردي لبعض المعاني الشعرية من غيره -إن ثبتتْ- لا تقدح في شعره، إذا وضعه في قالب جديد، وثوب قشيب، فاق به قائله في الأصل، فتداول الشعراء للمعنى الواحد أمر سائغ، ما دام الثاني قد صاغه في قالب أجمل، ولفظ أحلى من صنيع الأول، وهذا ما نلاحظه في بعض شعر ابن الوردي.

(١) الدرر الكامنة ٤/ ٢٢٩- ٢٣٠.

قال ابن رشيق القيرواني: «والمخترع معروف له فضله، متروك له من درجته، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده.... فهو أولى به من مبتدعه»[١].

قال الزركلي: «وكانت بينه وبين صلاح الدين الصفدي مناقضات شعرية لطيفة، وردت في مخطوطة ألحان السواجع».

ولابن الوردي قصيدة يرثي بها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، تدل على إنصافه وحسن أخلاقه:

تقي الدين أحمد خير حبر	خروق المفصلات به تخاطُ
توفي وهو محبوسٌ فريدٌ	وليس له إلى الدنيا انبساط
قضى نحباً وليس له قرين	ولا لنظيره لُفّ القماطُ
فريداً في ندى كف وعلم	وحل المشكلات به يُناطُ
هم حَسدوه لما لم ينالوا	مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كسالى	ولكن في أذاه لهم نشاطُ
وحبس الدر في الأصداف فخر	وعند الشيخ بالسجن اغتباطُ
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي	ففيه لقدر مثلكم انحطاطُ
أما والله لولا كتم سري	وخوف الشر لانحل الرباطُ
فما أحد إلى الإنصاف يدعو	وكل في هواه له انخراطُ[٢]

(١) العمدة لابن رشيق ٢٩٠.

(٢) انظر: العقود الدرية ٥٢٣- الوافي بالوفيات ٧/ ٢١.

وفاته:

أقام بحلب في درب بني السفاحِ، إلى أن توفي بالطاعون في ٢٧ ذي الحجة عام ٧٤٩هـ، وهو في عُشر السبعين، بعد أن عمل مقامة سماها «النبا في الوبا»، ودفن بتربة الصالحين بجوار أخيه جمال الدين[1].

والله أعلم

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ١٩٥ طبعة دار الجيل- البدر الطالع ١/ ٥١٤- فوات الوفيات ٢/ ١٩٥.

قال ابن الوردي :

(١) اعتزلْ ذكر الغـواني والغزلْ وقلِ الفصْـلَ وجانبْ من هَزلْ

الاعتزال: ترك المخالطة.

والغواني : جمع غانية، كما قال الشاعر:

دعاني الغواني عمَّهن وخِلْتني لي اسْمٌ فلا أُدعى به وهو أولُ

والغانية هي: الشابة الجميلة اللطيفة سميت بذلك؛ لأنها تستغني بجمالها الطبيعي عن الزينة، وقيل: هي الشابة التي تُطلب ولا تَطلب.

وفي نسخة «ذكر الأغاني» وهي جمع أغنيَّة -بالتشديد- على الأصح، وهي الغناء والتلحين، قال الزبيدي: «وبه سمى أبو الفرج الأصبهاني كتابه لاشتماله على تلاحين الغناء»[١]، وقيل: الأغاني جمع غانية أيضاً.

والغزل: هو الكلام الرقيق لفظاً ومعنى، الذي يكون بين الفتيان والجواري.

والفصل: القطع والإبانة، ويطلق على الحكم الذي يفصل به الحق عن الباطل.

والهزل: المزاح واللعب، وكل كلام لا تحصيل له كالهذيان.

وفرق الزبيدي -نقلا عن بعض أهل الغريب- بين المزاح والهزل بأن الأول انبساط لا إيذاء معه، والثاني انبساط فيه إيذاء[٢]، وقد وصف الله تعالى القرآن بقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١١-١٤].

(١) تاج العروس ٣٩/ ١٩٥.

(٢) انظر: تاج العروس ٧/ ١١٧.

فنفى عن القرآن وصف الهزل، فهو جدٌّ كله، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور، ومعظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، ويجب أن يلقى في ذهنه أن جبار السموات والأرض يخاطبه فيأمره وينهاه ويعده ويوعده، حتى وإن لم يستفزه الفزع والخوف، ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون عند تلاوته جاداً غير هازل، فقد نفى الله تعالى عن المشركين ذلك في قوله: ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم:٦٠].

والمعنى: اترك ذكر النساء الغانيات، وأعرض عن التغزل بهن، واجتنب المزاح واللعب، وأقبل على الحق كالقرآن تلاوة وتدبراً، فإنه الفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

والناظم دعا إلى ترك الباطل، والاشتغال بالحق، ولم يكتف بالأول فقط؛ لأن النفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، فهي كالإناء إن لم تملأه بالماء امتلأ بالهواء، وهذه نظرية تربوية تسمى: «ملأ الفراغ»(١).

والبيت المذكور دعوة من الناظم إلى الجدية والرجولة، وتنفير عن اللعب والأنوثة، وهذا هو الأصل في شخصية المسلم، فإنها شخصية جادة في تفكيرها وسلوكها، وقولها وعملها، لا تغرق في أوحال المزاح، ولا تغوص في مستنقع اللهو.

وهذه الجدية تفرضها الغاية التي خلق الإنسان من أجلها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويفرضها الإدراك بقصر الحياة وسرعة انقضائها، كما قيل: «الدنيا ساعة فاجعلها طاعة».

(١) وتسمى أيضاً: «التحلية بعد التخلية» و«التعطير بعد التطهير».

والجدية في التفكير والعمل من أسباب تفوق الغرب في أمور الدنيا، وتقدمهم في شؤون الصناعة والتجارة ونحوها، كما أن اللهو واللعب وتضييع الوقت هو من أسباب تأخر الأمة المسلمة، واعتمادها على الأمم الغربية.

ومع ذلك، فالمزاح المعتدل له نصيب، واللعب النظيف له وقت، يأخذ منه المسلم بالمقدار الذي ينشط النفس، ويقويها على أداء رسالتها في هذه الحياة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً، وله في المزاح مواقف طريفة، وكلمات ظريفة.

مازح امرأة، فقال لها: «لا يدخل الجنة عجوز»[١]، وأراد أنها تكون شابة عند دخولها.

ومازح رجلاً، فقال: «إنا حاملوك على ولد الناقة ، فقال: وما أصنع به ؟ فقال: وهل تلد الإبلَ إلا النوقُ»[٢].

ومازح صبياً، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟»[٣].

وأحوج الناس إليه النساء والصبيان لضعف قلوبهم.

والاعتدال فيه مطلوب شرعاً، والمبالغة فيه أو المداومة عليه مذموم شرعاً، وقد يورث الضغينة ويسقط الوقار، ولكنه في موضعه كالملح في الطعام.

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل مرسلا عن الحسن ١٧٧، والطبراني في الأوسط عن عائشة مرفوعا ٥٥٤٥، وابن السري في الزهد عن سعيد ابن المسيب ٢٤، والأصبهاني في أخلاق النبي ٤٨٩، وأسنده بن الجوزي عن أنس في وفاء الوفاء ٢/ ٢٤٤، وضعفه العراقي في المغني ٢/ ٧٩٥.

(٢) رواه الترمذي ١٩٩١ وقال حديث حسن صحيح غريب، وأبو داوود ٤٩٩٨ والبيهقي ٢٠٩٥٧- والبخاري في الأدب المفرد ٢٦٨.

(٣) رواه البخاري ٥٧٧٨- ومسلم ٢١٥٠.

وينسب للشافعي أنه قال:

أفدْ طبعك المكدود بالجد راحة — بجد وعلله بشـــــيء من المزح

ولكن إذا أعطيتـــــه المزح فليكنْ — على قدر ما يعطى الطاعام من الملح[١]

وقد بدأ الناظم قصيدته بالتحذير من فتنة النساء؛ لأنها أعظم الفتن المتعلقة بالغرائز والشهوات، ولهذا بدأ الله تعالى بذكرها عند تعداد الشهوات، فقال سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤]، وفي الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[٢].

وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم فتنتهن بفتنة الدنيا وخصهن بالذكر لخطرهن فقال: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه[٣].

وقال بعض السلف: «ما أيس الشيطان من أحدٍ إلا جاءه من جهة النساء».

وقال علي بن زيد: أخبرنا سعيد بن المسيب وهو ابن أربع وثمانين وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى: «ما شيء أخوف عندي من النساء»[٤].

---

(١) انظر في هذا المعنى: أدب الكاتب لابن قتيبة ١١- محاضرات الأدباء ١/ ٣٤٦- الآداب الشرعية ٢/ ٢١٣.

(٢) صحيح البخاري ٤٨٠٨- ومسلم ٢٧٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٥٤- ومسلم ١٩٠٧.

(٤) رواه أبو نعيم عن سعيد بن المسيب في الحلية ٢/ ١٦٦- والبهيقي في الشعب ٤/ ٣٧٣.

(٢) وَدَعِ الذكْرى لأيـام الصِّبـا فلأيـامِ الصِّبـا نَجـمٌ أفَـلْ

أيام الصبا: -بكسر الصاد- أيام الصغر واللهو واللعب.

والأفول: الذهاب والغياب، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ**﴾ [الأنعام:٧٦]، أي: غاب الكوكب.

والمعنى: اترك التذكر لأيام الصغر والفتوة، والتشاغل بذكرياتها؛ لأنها أيام ذاهبة، وذكريات ماضية، لا ينفعك تذكرها.

وأيام الصبا إن ذهبت في اللهو والخطايا فتذكرها مضيعة للوقت الحاضر، وملهاة عن العمل النافع، وقد يغري الإنسان بالرجوع إلى اللعب والمعاصي، والحنين إليها، وذكرها على سبيل التفاخر بالمعصية معصية أخرى كما في الحديث «كل أمتى معافى إلا المجاهرين»[١] أي بالمعاصي.

والصغائر إذا قارنتها بعض الأفعال عظم إثمها، منها:

١- السرور بالمعصية والفرح بها.

٢- التجاهر بالمعصية، والافتخار بها.

٣- الاستهانة بالمعصية واحتقارها، كما قال الشاعر:

«من القراريط يأتي كل قنطار».

٤- الإصرار على المعصية،كما قال بعض الصحابة[٢]:

«لا صغيرة مع الإصرار».

---

(١) رواه البخاري ٥٧٢١.

(٢) جاء موقوفاً عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وروي مرفوعاً ولا يصح. انظر: نصب الراية ١/ ٢٢٧- المغني للعراقي ٢/ ٩٩١- المقاصد الحسنة ٧٢٥- جامع العلوم والحكم ١/ ١٧٩.

قال الشاعر:

لا تحقرن صغير الذنب تُدمنه فالخط مجتمع التأليف من نقطه

وأيام الصبا والشباب محببة إلى النفوس؛ لأنها -في الغالب- أيام سرور وقوة وعافية، يقضيها الإنسان بين أحبابه وأهله، وإذا تذكرها الإنسان للعبرة، أو للتحدث بالنعمة، فهو أمر مستحسن شرعاً وعقلاً.

ولكن العاقل ينبغي له أن يتدارك ما فات من العمر بالإكثار من العمل الصالح، والإقبال على الطاعة، ولا يضيع الحاضر بالشكوى من ضياع الماضي، فإن هذا التحسر لا يرد ما فات، وعقارب الزمن لا ترجع إلى الوراء.

وليحذر العاقل من التفريط في أيام الكبر، فإنه أقبح منه في أيام الصغر؛ لأن الكبير دنا أجله، وقرب موته، وأتته النذر من المرض والهرم، وإذا كان خير الناس من طال عمره، وحسن عمله؛ لأنه يزداد كل يوم خيراً، فشر الناس من طال عمره، وساء عمله؛ لأنه يزداد كل يوم شراً.

قال الشاعر:

عصيتُ هوى نفسي صغيراً فعندما أتتني الليالي بالمشيبة والكبرْ
أطعتُ الهوى عكس القضية ليتني خُلقت كبيراً ثم عُدتُ إلى الصغرْ[1]

وقد ذكر العلماء أن تعاطي المحرمات مع ضعف الدواعي أقبح من تعاطيها مع قوتها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»[2]، وإنما عظم ذنب هؤلاء

(١) انظر: فتح الرحيم الرحمن ١٦/ ١٨.
(٢) رواه مسلم ١٠٧.

الثلاثة لضعف الأسباب الداعية إلى المعاصي المذكورة، فالشيخوخة مانعة من الزنا، والملك مانع من الكذب، والفقر مانع من التكبر[1].

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ١١٧- الديباج على مسلم ١/ ١٢٢- فيض القدير ٣/ ٣٣٢- مرقاة المفاتيح ٩/ ٢٩٦- مجموع الفتاوى ١٨/ ١٤.

(٣) إن أحلى عِيشةٍ قضَّيتَها ذهبتْ لذَّاتُها والإثمُ حلْ

وفي نسخة: «أهنا».

والعِيشة: الحياة، تقول: عاش الرجل، أي: صار ذا حياة، فهو عائش، والأنثى عائشة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١].

أما المعيشة فهي ما يكسبه الإنسان ويعيش به ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وجمعه معايش بالياء عند الجمهور، وقيل: معائش بالهمز[١] وقد يأتي بمعنى العيشة كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أي حياة ضيقة..

واللذات: جمع لذة، وهي الشهوة.

«والإثم»: المعصية والذنب، ويقابله البر بمعنى الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢].

وفي الحديث: «البر ما أطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك» رواه أحمد والدارمي وحسنه النووي.

وقد يطلق الإثم على المفسدة والمضرة، كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فقابله بالمنفعة.

والأَثام: العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

والمعنى: إن أطيب الحياة، وأجمل الأيام، قد ذهبت شهواتها وانقضت لذاتها،

(١) انظر: تاج العروس ١٧/ ٢٨٣- المصباح المنير ٢/ ٤٤٠.

وبقي إثمها وتبعاتها.

وهكذا شهوات الدنيا، ولذات الحياة لا تبقى لصاحبها، وإنما هي لذة ساعة، وحسرة عمر، كما قال الشاعر:

ذهبت لذة الصبا في المعاصي وبقي بعد ذاك أخذ القصاص

وقال الشاعر:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقبُ سوء في مغبَّتها لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ

ومُضيُّ أيام الصبا والشباب بشهواتها ولذاتها، حقيقةٌ لا ينكرها أحد، ولكن يتفاوت الناس في أثر هذه المعرفة، فالعاقل يستثمر أيامه في العفة والطاعة والمنفعة، والجاهل يضيع صباه وشبابه في نيل أكبر قدر ممكن من لذائذها، ويردد ما قال الصفي الحلي:

والتقط اللذةَ حيث أمكنتْ فإنما اللذات في الدهر لُقطْ

إن الشباب زائر مودّع لا يستطاع ردّه إذا فَرطْ

(٤) واتـركِ الغـادةَ لا تحفَـلْ بهـا تُمْـسِ في عـزٍّ وتُرفـعْ وتُجَـلْ

الغادة والغيداء: الفتاة الناعمة اللينة.

والاحتفال: الاهتمام الزائد بالشيء، والاجتماع.

والمعنى: أعرض عن طلب الفتاة الناعمة والتعلق بها، فإن ذلك يجعلك عزيزاً وجليلاً عند الله والناس.

والنهي في هذا البيت عن طلبها، والتعلق بها، والنهي في البيت الأول عن ذكرها والتغزل بها، فلا تكرار بينهما، قاله القناوي[١].

وطلب الغانية إن كان عن طريق الفاحشة فهو وبال على صاحبه في الدنيا بالخزي والهوان والبلاء، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

وإن كان طلبها عن طريق النكاح الشرعي، فهو محمود شرعاً لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

وفي الحديث الصحيح: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»، ثم بين فوائده بقوله: «فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»[٢].

وإذا قصد بالزواج العفة وصيانة النفس، وتكثير الأمة المحمدية، واحتسب النفقة على الأهل والولد، فإنه مأجور على ذلك.

وجاء في الحديث الصحيح: «وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس

(١) فتح الرحيم الرحمن ٢٠.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٧٧٨– ومسلم برقم ١٤٠٠.

مني»[١].

فالزواج أفضل من العزوبة، وقد يستثنى بعض الأشخاص فتكون العزوبة في حقه أفضل لظروف خاصة، وأحوال طارئة كما ذكره الغزالي في الإحياء[٢].

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٧٦ - ومسلم برقم ١٤٠١.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٤- ٤/ ٢٣٨- فتح الباري ٩/ ١١٠- نيل الأوطار ٦/ ٢٣١.

(٥) والْـهَ عـن آلـة لهـوٍ أطربـت وعـنِ الأمـردِ مُرْتَـجّ الكَفَـلْ

اللهو واللهي لغتان، بمعنى التشاغل واللعب.

والطرب: خفة سببها شدة السرور أو الحزن، كما قال الشاعر:

وقالوا قد طربت فقلت: كلا وهل يبكي من الطرب الجليدُ(١)

والأمرد: هو الشاب الذي طرّ شاربه، ولم تنبت لحيته.

والكفل: -محركة- العجز وهو مؤخرة الإنسان، تقول العرب: فلانة عجزاء الكفل.

والمعنى: اترك آلات الطرب والغناء المصحوب بآلات الطرب، وتشاغل عنها، وأعرض عن المردان، والتعلق بهم، فإن كل ذلك مفسدة لعقل الإنسان ودينه وأخلاقه.

وقد حرم الشرع المطهر المعازف وهي آلات الطرب، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [لقمان:٦].

قال ابن عباس وابن مسعود وجمهور المفسرين: «لهو الحديث: الغناء».

وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، قال ابن عباس: «كل داع إلى معصية».

قال ابن القيم: «والغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية»، ولهذا سماه الفضيل: «رُقية الزنا»، فكم من حرةٍ صارت بالغناء من البغايا، وكم من حرٍ صار

(١) انظر: مقاييس اللغة ٣/ ٤٥٤- تاج العروس ٣/ ٢٦٨.

بالغناء عبداً للصبايا[١].

وروى البخاري في صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة، فيقولون: ارجع إلينا غداً، فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[٢].

وفي سنن ابن ماجه بسند صحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم قردة وخنازير»[٣].

فتوعدهم الله تعالى بالخسف والمسخ، وإن كان الوعيد على جميع هذه الأفعال، فلكل واحد قسط من الذم والوعيد، قاله ابن القيم[٤].

قال الشاعر:

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض من سماع الغِنا

وكم قلت: يا قوم أنتم على ... شفا جرف ما به من بِنَا

فلما استهانوا بتنبيهنا ... رجعنا إلى الله في أمرنا

فعشنا على سنة المصطفى ... وماتوا على تنتنا تنتنا

وشذت طائفة من الصوفية، وغلت في قولها، فزعمت أنَّه قربة وعبادة،

(١) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٢٤٥- ٢٤٧.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢١٢٣ برقم ٥٢٦٨.

(٣) رواه ابن ماجة برقم ٤٠٢٠- والبهيقي ١٧١٦٠.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٢٤٥.

فأجابهم أبو إسحاق الموصلي[1] بقوله:

ألا قل لهم قول عبد نصوح　　وحق النصيحة أن تُستمعْ

متى علم الناسُ في ديننا　　بأن الغنا سنةٌ تُتَّبعْ

وأن يأكلَ المرءُ أكلَ الحمارِ　　ويرقصَ في الجمعِ حتى يقعْ

وقالوا سكرنا بحب الإله　　وما أسكر القومَ إلا القِصَعْ

كذاك البهائمُ إن أُشْبعتْ　　يُرقّصها ريُّها والشِّبَعْ

(١) إبراهيم بن نصر المعروف بقاضي السلامية. البداية والنهاية ١٣/ ٦٦- الوافي بالوفيات ٦/ ٩٩- وفيات الأعيان ١/ ٣٨.

(٦) إن تبدّى تنكسف شمس الضحى وإذا ما ماس يُزري بالأَسَلْ

«تبدّى»: أي ظهر

«تنكسف»: أي يذهب ضوؤها، وأضاف الشمس إلى الضحى؛ لأنها أسطع نوراً.

«ما ماس»: ما: زائدة، كما قيل: «فائدة (ما) بعد إذا زائدة».

ماس: أي تبختر واختال.

وقال القناوي: «ماس: حلق رأسه بالموسى»[١] والأول أصح.

«يزري»: يعيب، يقال: أزرى فلان بأخيه إزراء، أي: أدخل عليه العيب.

«والأسل»: نبات رقيق الأغصان وصلبها.

وقيل للرماح: الأسل تشبيهاً به.

والأسالة في الخد: الطول واللين، وهي علامة كرم الأصل عند العرب، كما قيل: «فلان تنبئ أسالة خده عن أصالة جده»[٢].

والتغزل بالمردان لم يكن من شيم العرب في شعرها، ولكنه اشتهر في الشعر الفارسي.

قال الشيخ عبد الحي الحسني: «اعلم أن أهل بلاد فارس يتغزلون بالأمارد خلافاً للعرب وأهل الهند، فإن أهل العرب يتغزلون بالنساء، وأهل الهند يتغزلون بالرجال على لسان النساء»[٣].

---

(١) فتح الرحيم الرحمن ٣٢.

(٢) أساس البلاغة ١٧.

(٣) معارف العوارف ص ٣٢٧.

وهذا البيت والذي بعده وصف للأمرد المذكور بالحسن والجمال، بحيث لو ظهر تنكسف شمس الضحى، وإذا تبختر في مشيته تهاون الناظر بالرماح أو بالأسل، عند حركتها. بسبب رشاقة هذا الموصوف وحسن حركته.

وعلى تفسير القناوي يكون المعنى: أن هذا الشخص إذا حلق شعره ازداد حسناً وجمالاً، وازداد قتله للناظرين على قتل الرماح، كما وقع لنصر بن حجاج بن علاط السلمي، وكان من أولاد الصحابة.

روى ابن سعد والخرائطي بسند صحيح -كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة- عن عبد الله بن بريدة قال: «بينما عمر بن الخطاب يعُسُّ ليلة في خلافته فإذا امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أو من سبيل إلى نصر بن حجَّاجِ

فلما أصبح سأل عنه، فإذا هو من أحسن الناس شعراً، وأصبحهم وجهاً، فأمره عمر أن يطم شعره، ففعل، فخرجت جبهته فازداد حسناً، فأمره أن يعتم فازداد حسناً، فقال عمر: لا والذي نفسي بيده لا تجامعني ببلد، فأمر له بما يصلحه، وصيّره إلى البصرة»[1].

وفيه يقول حافظ إبراهيم:

جنى الجمالُ على نصرٍ فغرَّبه ... عن المدينة تبكيه ويبكيها

وكم رمتْ قَسَماتُ الحسن صاحبها ... وأتعبتْ قصباتُ السَّبق حاويها

وزهرةُ الروض لولا حسنُ رونقها ... لما استطال عليها كفُّ جانيها

---

(١) انظر: الإصابة ٤/ ٤٤٧- طبقات ابن سعد ٣/ ٢٨٥- تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٠- ذم الهوى ١٢٤.

وكم في الناس من «جميل» قد أصابته العين فصار في بلاء شديد، وتعب أكيد.

وقد اضطر جماعة من مشاهير العرب، كوضّاح اليمن، والمقنع الكندي، وأبي زبيد الطائي، إلى التقنّع وستر الوجه عند ورود المواسم، خوفاً من العين، ومكايد النساء، بسبب جمالهم وحسنهم[١] !!!.

ووصف «شكيب أرسلان» ساحلَ جُدّة بالبهاء واللمعان، وتعدد الألوان، حتى كأنه ذيول الطواويس، بسبب الشعب المرجانية القريبة من السطح، لكنه في الوقت نفسه من أشد السواحل خطراً بالنسبة للسفن !!، ثم قال: «فسبحان الذي أودع فيها الحسن، ولكنه أنزل فيها البأس، وجعلها غائلة للمراكب، ولقد صدق المثل (إن من الحسن لشقوة)» [٢].

---

(١) انظر: مختار الأغاني ١٢/ ١٧١.
(٢) الارتسامات اللطاف ٣٤- ٣٥.

(٧) زاد إن قسـناه بالبـدر سـنا وعدلنـــاه بغصـــن فاعتـــدلْ

«البدر»: هو القمر لليالي الإبدار، سمي بدراً؛ لأنه يبادر بطلوعه غروب الشمس.

«والسنا»: الضوء، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [النور: ٤٣].

وعدله وعادله: وازنه وقارنه.

والمعنى: أننا إذا شبهنا هذا الشخص بالبدر، زاد نوره وبهاؤه وحسنه على ضوء البدر وحسنه.

ولو قارناه وسويناه بالغصن في اعتداله وحركته لقام مقامه في ذلك، فوصفه بجمال الوجه، واعتدال القدّ.

والمراد: أن الأمرد الجميل مظنة الفتنة، فيجب الحذر من ذلك، ومعلوم أن فتنته تعم الرجال والنساء.

(٨) وافتكر في منتهى حسن الذي   أنـت تهـواه تجـد أمـراً جلـلْ

«افتكر»: أي تأمل، وعده الزبيدي في التاج من كلام العامة[١].

تهواه: من الهوى -بالقصر- وجمعه أهواء، وهو ميل النفس إلى ما تحبه كما في قول البوصيري:

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل   ولا أرقت لذكر البان والعلمِ

ويطلق بمعنى الباطل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وسمي هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في الشر.

وأما الهواء -بالمد- فهو ما بين السماء والأرض، ويجمع على أهوية، كما قاله القناوي -رحمه الله-.

«جلل»: أصله جللا، ولكنه على لغة ربيعة يقفون على المنصوب المنون بحذف الألف، وهو لفظ من الأضداد، يطلق على العظيم والحقير[٢].

ومن الثاني قول المرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم -بعد أن قُتِل أبوها وابنها وزوجها-: «كل شيء دونك جلل»، أي: هين وحقير، ومنه قول الشاعر:

كل المصيبات إن جلت وإن عظمت   إلا المصيبة في دين الفتى جَللُ[٣]

ويصح تفسيره في بيت اللامية بكل منهما، فالمعنى على الأول: «تأمل في نهاية حسن ذلك الشيء الذي تهواه وتميل إليه تجد أمراً عظيماً في القبح، فإنه سيصير إلى الشيخوخة ثم الموت، ويكون جيفة قذرة، لا يطيق أحد الجلوس عندها».

---

(١) تاج العروس ١٣/ ٣٤٥- المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٨.

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٠/ ٢٦١- تاج العروس ٢٨/ ٢١٨- مغني اللبيب ١/ ١٦٣.

(٣) انظر: الزاهر للأنباري ١/ ٤٤٠.

ويكون المعنى على الثاني: «تأمل في نهاية حسن ذلك الشيء الذي تهواه تجد أمراً هيناً حقيراً، لا يستحق كل هذا التعلق منك»، ذكره القناوي.

ومثله قول المتنبي:

لو فكر العاشقُ في منتهى حُسْنِ الذي يسبيه لم يسْبِهِ

وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: «إذا أعجبتْ أحدَكم امرأةٌ فليذكر مناتنها».

قال ابن الجوزي: «وهذا أحسن من قول أبي الطيب...؛ لأن ابن مسعود ذكر الحال الحاضرة الملازمة، وأبو الطيب أحال على أمور متأخرة»[١].

وقال بعض الحكماء: «العشق هو العمى عن عيوب المحبوب، فمن تأمل عيوب المحبوب سلا».

قال ابن نباتة:

ما كنت أعرف عيب من أحببت حتى سلوت فصرت لا أشتاقُ

وإذا أفاق الوجد واندمل الهوى رأت القلوب ولم تر الأحداقُ

وقال ابن مفلح: «وليحذر العاقل إطلاق البصر فإن العين ترى غير المقدور عليه، على غير ما هو عليه، وربما وقع من ذلك العشق فيهلك البدن والدين فمن ابتلي بشيء من ذلك فليفكر في عيوب النساء...»[٢].

وهكذا نهاية الدنيا وأبنائها وأحوالها كما قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

---

(١) ذم الهوى ١/ ١٥- روضة المحبين ٤٧٣.

(٢) الفروع ٥/ ١٠٨- منار السبيل ٢/ ١٢٢.

ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وبقي نظر آخر يعين على ترك التعلق بالمخلوقات هوى وعشقاً، وهو التفكر في النعيم الذي لا يفنى، والملك الذي لا يبلى، مما أعده الله في الجنة لعباده المتقين.

(٩) واتقِ اللهَ فتقوى الله ما جاورتْ قلْبَ امرئٍ إلّا وصَلْ

«التقوى»: حالة في النفس تحمل صاحبها على اتباع الأوامر واجتناب النواهي، فهي كلمة قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، تشمل فعل كل مأمور، وترك كل منهي عنه.

والمعنى: اتبع الأمر، واجتنب النهي؛ لأن اتباع المأمور، واجتناب المنهي، ما جاور قلب شخص إلا وصل إلى مرضاة الله تعالى.

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ويكفي التقوى شرفاً أنها سبب لتوسع الأرزاق وزوال الكربات ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلَّب عُرياناً ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعةُ ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وقال الشاعر:

وما لبس الإنسـان أبهى من التقى وإن هو غالى في حسان الملابسِ

وقال الشاعر:

وإذا بحثـت عـن التقـيّ وجدتـه رجـلاً يُصَـدقُ قولَـه بفعـالِ

وعـلى التقيّ إذا تراسـخ في التقى تاجـان، تـاجُ سـكينةٍ وجمـالِ

وإذا تناسـبتِ الرجـالُ فـما أرى نسـباً يكـونُ كصالـحِ الأعـمالِ

(١٠) لیسَ من یقطعُ طرْقاً بَطَلاً إنـما مَـنْ یتـقِ اللهَ البطـلْ

«طرقا»: بتسكين الراء لضرورة الوزن، جمع طريق، وهو السبيل وزناً ومعنى.

وقطّاع الطريق: هم اللصوص الذين يرصدون الناس في الطرقات للنهب والسلب.

«والبطل»: هو الشجاع، سمي بذلك؛ لأنه يعرض نفسه للتلف، أو لأنه يبطل دم المتعرض له بسوء، وفي المثل: «مكره أخوك لا بطل»، ويروى «أخاك»[1]، أي أنه محمول على ذلك، وليست الشجاعة من طبعه، يضرب مثلاً لمن يُحمل على ما ليس من شأنه.

والمعنى: ليس الشخص الذي يقطع الطرق، ويمنع الناس من المرور شجاعاً ماهراً، بل الشجاع هو المتقي لله تعالى؛ لأنه من شجاعته قهر نفسه، وأبطل كيدها.

وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[2].

قال الشاعر:

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء: فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

---

(١) على لغة القصر. انظر: شذور الذهب ٢٩١- مغني اللبيب ١/ ٢٨٦.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٧٦٣- ومسلم ٢٦٠٩.

وقال الشاعر:

إنارةُ العقل مكسوفٌ[1] بطوعِ هوًى   وعقلُ عاصي الهوى يزدادُ تنويرا

فالإنسان العاقل يزداد عقله قوة وبصيرة بتقوى الله تعالى وطاعته، كما أنه يضعف بعكس ذلك.

(١) الأصل أن يقال: «مكسوفة» لكنْ حذَفَ التاء بسبب إضافتها للعقل، والمضاف قد يكتسب التذكير والتأنيث من المضاف إليه.
انظر: خزانة الأدب ٥/ ١٠٤- أوضح المسالك ٣/ ١٠٥.

(١١) واهْجُرِ الخمْرةَ إن كنتَ فتًى كيفَ يَسْعى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

«الهجر»: هو الترك والإعراض.

«والخمر والخمرة»: كل مسكر، كما ثبت في الحديث: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»[1].

والفتى هو الشاب القوي، وجمعه فتية وفتيان، وقد يطلق على الخادم كما في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠]، وقد يطلق على العبد والأمة كما في قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ [النور:٣٣]، أي: إماءكم.

والجنون: هو فساد العقل وذهابه.

والمعنى: اترك شرب المسكرات إن كنت شاباً قوياً حاذقاً، ثم تعجب الناظم ممن أعطاه الله العقل الذي يميز به بين المحاسن والقبائح، ثم يتسبب في زوال العقل بشرب المسكرات.

وقد حرم الله تعالى شرب الخمر على طريقة التدريج، فكان كثير من المسلمين يشربها عملاً بالأصل وهو الإباحة، وأخذاً بالامتنان في قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل:٦٧].

ثم إن جماعة شربوها ودخلوا في الصلاة فأخطؤوا في قراءة القرآن، فنزل قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، فاجتنبوا شربها في أوقات الصلاة، ثم سأل جماعة عن حكمها وبيانها الشافي، فبين

---

(١) وهو من أحاديث سلسلة الذهب التي رواها الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر، كما في الأم ٦/ ١٧٦، وقد ثبت مرفوعاً كما في صحيح مسلم- الأشربة برقم ٧٣- ٧٥، انظر: التمهيد ١/ ٢٥٣- فتح الباري ١٠/ ٤٤.

لهم الله أن ضررها أكثر، وفيها منافع، وذلك في قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إن جماعة شربوا الخمر، وتفاخروا بشعر الجاهلية وأيامها حتى تقاتلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، وللخمر مفاسد ذكرت الآية بعضها، منها:

١- شربها سبب لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس.

٢- شربها فيه الصد عن ذكر الله وتركُ الصلاة.

٣- شربها مفسد للعقل، بحيث يصير شاربها كالمجنون يلعب به الصبيان.

٤- شربها متلفة للمال، ومضيعة له فيما يضر ولا ينفع.

وبالجملة فشرب الخمر مفتاح كل شر، يسهل على الشارب جميع المعاصي، ويجلب لصاحبها غضب الله وعقابه، ولهذا سميت «أم الخبائث»، وقد تركها بعض الناس في الجاهلية مروءةً؛ لقبائحها، منهم: قيس بن عاصم المنقري حيث قال:

رأيت الخمر صالحة وفيهـــا ... خصال تفســـد الرجل الحليما

فلا والله أشربهـــا صحيحا ... ولا أُشْـفـى بهـــا أبـدا سقـيما

ولا أعطي بها ثمنـــا حيـــاتي ... ولا أدعـو لـهـا أبـــدا نـديما

فـــإن الخمر تفضح شـــاربيها ... وتـجنيهم بهـــا الأمر العظيما

(١٢) صدِّقِ الشَّرعَ ولا تركن إلى رجلٍ يرصُدُ بالليل زُحَلْ

«الشرع»: هو ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام، وهو لفظ مرادف للدين والملة والشريعة.

والركون: الميل إلى الشيء، يقال: ركن -بفتح الكاف وكسرها- يركن إلى الدنيا، أي: مال إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[هود: ١١٣]، أي: لا تميلوا إليهم.

«والرَّصْد»: الاستعداد والترقب، ويقال: الإرصاد أيضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧].

والمرصد: موضع الرصد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥].

«زُحَل»: -على وزن عمر- أحد الكواكب السبعة السيارة التي جمعها الناظم في قوله:

زحلٌ شرى مريخَه من شمسِهِ فتزاهرتْ لعطاردِ الأقمارُ

وهي من الخُنَّس التي ذكرها الله في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥-١٦]، سميت بذلك؛ لأنها تسير في البروج ثم ترجع إلى مكانها.

وكانت العرب في الجاهلية تتشاءم بزحل فتقول: «أشأم من زُحل»[1].

وليس المراد في البيت خصوص زحل، بل المراد جميع الكواكب والنجوم.

---

(١) جمهرة الأمثال ١/ ٥٥٩.

والمعنى: صدق الشرع فيما جاء به، ولا تصدق قول المنجمين الذين يرصدون الكواكب، ويترقبون النجوم لمعرفة الغيبيات، ويزعمون أنها مؤثرة في العالم بالسعد والنحس.

وأما أهل الحق فيقولون كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

وأما ما أخبروا به من الأمور التي وقعت كما أخبروا -وهو قليل- فقد سئل عنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فأجاب: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليّه، فيخلطون معها مئة كذبة» متفق عليه[1].

وأما دعوى تأثير النجوم والطوالع في الناس بالسعد والنحس، فهي باطلة؛ لأننا نرى الجماعة الكثيرة يركبون السفينة أو الطائرة ثم يهلكون جميعاً -كما هلك فرعون وجنوده بالغرق في وقت واحد- مع اختلاف طوالعهم، فلو كان للطوالع أثر لما اتفق هلاكهم مع اختلاف الطوالع، فدل على أنه لا أثر لها.

ونجد الطفلين يولدان في وقت واحد، وأحدهما من أسعد الناس، والثاني من أشقاهم، فكيف اختلف حالهما مع اتفاق الطوالع!![2].

قال منصور الفقيه:

ليس للنجم إلى ضرٍ ولا نفع سبيلُ
إنما النجم على الأو قات والسمت دليلُ

(١) صحيح البخاري برقم ٤٥٢٢- وصحيح مسلم برقم ٢٢٢٨.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٩/ ٢٨- تفسير النسفي ٣/ ١٨٧.

وقال أيضاً:

من كان يخشى زحلا أو كان يرجو المشتري

فإنني منه - وإن كان أبي الأدنى- بري

وقال الشاعر:

تُدبِّرُ بالنجوم ولستَ تدري وربُّ النجم يفعل ما يريدُ

وصح في الحديث: «من أتى عرافاً فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[1]، ونفي القبول يراد به نفي الثواب.

وفي بعض الروايات عند أحمد وغيره: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»[2].

قال المناوي -رحمه الله-: «فإن اعتقد صدقه في دعواه الاطلاع على الغيب كفر حقيقة»[3].

قلت: لأنه ردٌّ لصريح القرآن.

والعراف: كل من يدعي معرفة الأمور الغائبة، فيدخل فيه الكاهن والمنجم، والضارب بالحصى، وصاحب الخط بالرمل، وأكثر هؤلاء لهم أولياء من الجن يساعدونهم على ضلالاتهم، ولا خلاف بين العلماء في تحريم الكهانة والعرافة[4].

(١) رواه مسلم برقم ٢٢٣٠.
(٢) رواه الترمذي بنحوه ١٣٥- وابن ماجه ٦٣٩- والنسائي في الكبرى ٩٠١٧ والحاكم وقال صحيح على شرطهما برقم ١٥.
(٣) فيض القدير ٦/ ٢٤- التيسير للمناوي ٢/ ٣٨٥.
(٤) انظر: أضواء البيان ١/ ٤٨٢.

(١٣) حَارتِ الأفكارُ في قُدرة مِنْ قَدْ هَدانا سُبُلاً عَزَّ وجَلْ

«حارت»: من الحيرة، وهي: الدهشة والذهول.

قال الأزهري: «أصله أن ينظر الإنسان إلى شيء، فيغشاه ضوء، فينصرف بصره عنه»(١).

والأفكار جمع فكر، وهو ترديد النظر في المعاني، وقد يطلق على العقول.

«هدانا»: أرشدنا ووفقنا، وهذا جار على لغة الحجازيين، فإنهم لا يعدّون «هدى» بالحرف، فيقولون: هديته الطريق.

وأما غيرهم من العرب فيَعدونه بالحرف، فيقولون: هديته إلى الطريق، وهديته للطريق(٢).

وبكل منهما جاء القرآن الكريم، فمن اللغة الأولى قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان:٣]، وقوله: ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:٦٨].

ومن اللغة الثانية: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:١٩]، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

«سبلا»: وفي نسخة: «سبلنا» بسكون الباء مراعاة للوزن.

والمعنى: أن العقول تحيرت في عظيم قدرة الله تعالى، الذي أرشدنا إلى الأعمال الصالحة، والطرق الموصلة إلى رضوانه وجنته.

---

(١) انظر: المصباح المنير ١٥٩.

(٢) انظر: اللامات للزجاجي ١٤٣- تفسير القرطبي ١/ ١٦٠- غريب الحديث لابن قتيبة ١٤٧.

فـآيات الله فـي الأنـفـس والآفـاق، وبـدائـع خـلـقـه فـي الأرض والسماوات، تجعل العقول مذهولة، والنفوس مندهشة من تلك القدرة الإلهية العظيمة، التي نشأت عنها هذه المناظر العجيبة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران:١٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

وأقـرب المصـنـوعـات العـجـيـبـة إلـيك نفسك: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١]، فهذه العجائب كلها تدل على كمال قدرته سبحانه.

فانظـرْ إلى نفْسِـك ثـمَّ انتقـلِ   للعـالم العلـوي ثـم السـفلي

تجـدْ بـه صُنْعـاً بديـعَ الحِكَـمِ   لكـنْ بـهِ قـام دليـلُ العـدمِ

وكلُّ مـا جَـاز عليـهِ العَـدَمُ   عليـه قطْعاً يستحيلُ القِـدَمُ(١)

---

(١) من نظم جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ٣٨-٤١.

(١٤) كَتَبَ المـوتَ على الخلقِ فكمْ فَـلَّ مِـنْ جمـعٍ وأفنـى مـن دُوَلْ

«الموت»: خروج الروح من البدن، وضده الحياة.

«وفلَّ القوم»: أي هزمهم كما قال كعب بن زهير في قصيدته:

إذا يُساور قِرْناً لا يحلُّ له أن يترك القِرْنَ إلا وهو مفلولُ

أي: مهزوم ومكسور.

«والدوَل»: قيل: بكسر الدال جمع دولة مثل: قصعة وقصع، وأما بالضم فجمع دُولة مثل: غرفة وغرف، ذكره الفيومي في المصباح المنير[١].

والدول: هنا الممالك والحكومات، سميت بذلك؛ لأن الله تعالى يداولها بين الناس ولا يديمها لأحد، كما قال المنصور للربيع بن يونس: «ما أطيب الدنيا لو لا الموت» !!. فقال الربيع: «ما طابتْ إلا بالموت»، فقال المنصور: «وكيف ذلك ؟» فقال الربيع: لو لا الموت لم تقعد هذا المقعد[٢].

والمعنى: أن الله تعالى كتب الموت على جميع المخلوقات والأمم، فما أكثر ما أفنى من الممالك والأمم، كالفراعنة والعمالقة والقياصرة والأكاسرة!!.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤]، فلو كان أحد ينجو من الموت لكان أولى الخلق بذلك محمداً صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرمهم على الله تعالى.

---

(١) انظر: المصباح المنير ٢٠٣- مختار الصحاح ١/ ٩٠.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣٥- وفيات الأعيان ٢/ ٢٩٥.

والنفس الإنسانية تحب الحياة، وتكره الموت؛ لخوفها مما وراء الموت، ولعلمها بتقصيرها، أو لتعلقها بشهوات الدنيا، كما قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا نكره الموت، فقال: لأنكم عمرتم دنياكم وخرّبتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمار إلى الخراب[١].

وذكر القناوي أن فارساً مرّ بغلام فسأله: يا غلام أين العمران ؟، فقال: اصعد تُشرف، فصعد فأشرف على مقبرة!!، فقال: هذا الغلام إما جاهل وإما حكيم !!، فرجع إليه فقال: سألتك عن العمران فدللتني على المقابر!!، فقال الغلام: إني رأيت أهل تلك القرية ينتقلون إلى هذه -أي المقبرة-، ولم أر أحداً ينتقل من هذه إلى تلك القرية، وإنما ينتقل من الخراب إلى العمران!![٢].

(١) رواه الدارمي برقم ٦٤٧- وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٣٤- والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٦٩- وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٢٨.

(٢) فتح الرحيم الرحمن ٦٤.

(١٥) أيـن نمـرودُ وكنعـانُ ومـنْ مَلَـكَ الأمـرَ وولَّـى وعَـزَلْ

«نمرود»: هو صاحب المناظرة التي حكاها سبحانه في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال المفسرون وعلماء النسب: هو النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان أحد الملوك الجبابرة، وقد استمر ملكه ما يقارب من أربعمئة سنة.

«وكنعان»: هو أبو النمرود، وقيل: هو كنعان بن نوح الذي غرق في الطوفان.

صدّر الناظم هذا البيت والثلاثةَ بعده بلفظ «أين» الاستفهامية، تقريراً للموعظة، وتأكيداً للحقيقة، وهي شمول الموت لكل أحد.

فهؤلاء المذكورون -مع شدة بأسهم وكثرة أموالهم- أخذهم الموت بغتة، فهل ترى لهم من باقية؟!.

فالواجب على العاقل أن يعتبر بهذا، ويستعد للموت، فإنه ليس له وقت معروف عند الإنسان، ولكنه يأتي بغتة، وتبقى حسرة في نفوس الغافلين.

وهؤلاء الجبابرة يحشرهم الله أمثال الذر تطؤهم الناس؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكل من تجبر على العباد في الدنيا أذله الله يوم القيامة، فاحذر أن تسير سيرتهم، وتحذو حذوهم، فيكون مصيرك كمصيرهم.

وأما من ملك الأمر، وولى من شاء، وعزل من شاء فكثير في التاريخ، وهم موجودون في كل زمان، ولكن دالت عليهم الأيام، وزالت رسومهم، ونُسيت أسماؤهم، فسبحان من لا يزول ملكه[١].

---

(١) انظر: فتح الرحيم الرحمن ٧٢.

(١٦) أيْنَ عادٌ أَيْن فرعونُ ومَنْ رَفَع الأهرامَ، منْ يسْمعْ يَخَلْ

«عاد الأولى»: تسمى عادَ إرم، وهي من قبائل العرب البائدة، وتنسب إلى عاد بن عوص بن سام بن نوح، وكانت تسكن الأحقاف باليمن، في الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨].

وهم الذين بعث فيهم هود عليه السلام، وكانوا من أوئل الأمم التي عبدت الأصنام بعد الطوفان، وقد أهلكهم الله تعالى بالريح العاتية: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وأما عاد الثانية فمتأخرة عن هذه.

وقوله: «أين عاد» يشمل الأولى والثانية.

«فرعون»: ملك جبار طاغية، حكى الله قصته في دعوى الربوبية، ومعاندة الرسل، واضطهاد الشعوب.

«الأهرام»: أبنية مربعة القواعد، مخروطية الشكل، كلما ارتفعت دقت، تشبه الجبل المنفرد.

والمشهور منها أهرامات مصر، وهي أهرامات تاريخية قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة، يقال: بناها ملك منهم يقال له: سوريد، ولما مات دفن فيها، ومعه كنوزه وأمواله.

ويقال: بناها رجل من العمالقة يسمى: سنان بن المهلهل، وأعدها لحفظ الغلال، والأول أصح[1].

---

(١) انظر: فتح الرحيم ٩٠.

ويقال: إنها من صنعة الجن.

ويبدو أن هذا القول الأخير من باب قول الشاعر:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجنِّ[١]

«يَـخَلْ»: أي يظن، وتقول في مستقبله: إخال -بالكسر- وهو الأكثر والأفصح، وبنو أسد يقولون: أخال -بالفتح- وهو القياس[٢].

وقوله: «من يسمع يخل» مَثَلٌ معناه: من يسمع أخبار الناس يظن ما يسمعه حقاً، ويسيء بهم الظن، وقد استشهد به النحاة على حذف المفعولين إذا دلّ عليه دليل[٣].

(١) انظر: تاريخ اليمن للصنعاني ١/ ٨٨- معجم البلدان ٥/ ٤٠١.
(٢) انظر: تاج العروس ٢٨/ ٤٤٩- مختار الصحاح ٨٢- المصباح المنير ١٨٧.
(٣) انظر: مغني اللبيب ١/ ٧٩٧- أوضح المسالك ٢/ ٧٠- المفصل ١/ ٣٤٧.

(١٧) أَين منْ سادوا وشـادوا[١] وبَنَوا هَلَـكَ الـكُلُّ ولم تُغـنِ القُلَـلْ

«سادوا»: من السيادة وهي الرئاسة والشرف.

«وشادوا»: يقال: شاد الحائط، أي طلاه بالشيد، وهو ما يطلى به الحائط كالجص ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: أي مطلي بالشّيد أو رفيع وطويل[٢].

«القُلل»: جمع قُلّة، وقُلّة كل شيء رأسه وأعلاه، والمراد هنا القصور العالية، والأبنية المرتفعة[٣].

والمعنى: أن كل من سادوا الناس وبنوا القصور، ماتوا ولم تنفعهم قصورهم العالية، ولا بروجهم المشيدة.

وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

---

(١) في بعض النسخ «شادوا وسادوا» وفي بعضها «جادوا».

(٢) انظر مقياس اللغة ٣/ ٢٣٤- تاج العروس ٨/ ٢٦٢.

(٣) انظر: جمهرة اللغة ٢/ ٩٧٦- المصباح المنير ٢/ ٥١٥.

(١٨) أيـن أربـابُ الحِجـا أهـلُ النهـى　　　أيـن أهـلُ العلـمِ والقـومُ الأُوَلْ

«الحجا»: -بكسر الحاء- العقل والفطنة، ومنه قيل للغز: «أحجية»؛ لأنه يمتحن به عقل الرجل وفطنته[1].

«والنهى»: جمع نُهية، وهي العقل سمي بذلك؛ لأنه ينهى صاحبه عن القبيح، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه:١٢٨].

وقالت الخنساء:

فتـى كان ذا حلـم أصيـلٍ ونُهيـةٍ　　　إذا ما الحبا من طائف الجهل حلَّتِ

ومنه قيل: «التقيّ ذو نهية».

وللعقل أسماء كثيرة في اللغة، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد ذكر الناظم في هذا البيت موت الصالحين بعد ذكره هلاك الجبابرة، فالدنيا ليست دار مقام لأحد، لا للصالح ولا للطالح، قاله القناوي[2].

فكما هلك الجبابرة السفهاء، ذهب العقلاء والعلماء كالصحابة والتابعين، فالكل قد حكم الله عليهم بالموت، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

---

(١) انظر: تاج العروس ٣٧/ ٤٠١- المصباح المنير ١٢٣- لسان العرب ١٤/ ١٦٥.
(٢) فتح الرحيم ٩٣.

(١٩) سيعيد اللهُ كلاً منهمُ وسيجزي فاعلاً ما قد فَعَلْ

«الإعادة»: رد الشيء ثانياً، ومنه إعادة الصلاة، وقال الراغب: «إعادة الشيء.. تكريره»[1].

«والجزاء»: المقابلة بالخير أو الشر، فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف:٨٨]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

والمعنى: أن الله تعالى سيعيد خلق هؤلاء جميعاً، ويرجعهم كما كانوا في الدنيا، سواء ماتوا في أعماق البحار أم في أنحاء الأرض، وسواء استقروا في القبور، أم في أجواف السباع والطيور، ثم يجمعهم في صعيد واحد، ويحاسبهم على النقير والقطمير، ويجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

يعني: أن القادر على ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

ثم إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها، وذلك بإنزال المطر فتهتز خضراء فيها من كل زوج بهيج، قادر على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

---

(١) انظر: التعاريف للمناوي ٧٣- تاج العروس ٨/ ٤٤٤.

ونشاهد في الحياة الدنيا أناساً قُتلوا ظلماً وعدواناً، وأناساً ماتوا ظالمين ومستكبرين، ونشاهد فيها أناساً خاضوا في الشهوات المحرمة، وأناساً عفَّوا عن المحارم حتى أدركهم الموت، فهل من الحكمة أن تنتهي قصة الحياة بذلك، ولا يكون هناك يوم يُـجَازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، كما يقول الملحدون قديماً وحديثاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨].

والعقل يدل على قانون الجزاء والعدل، فالتاريخ مشحون بالجرائم والظلم، فلو لم يكن هناك يوم آخر لكانت الحياة عبثاً لا معنى لها، يتنزه عنه الخالق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

إن قضية (البعث والجزاء) ليست قضية محسوسة حتى تخضع للمنهج التجريبي، وليست قضية عقلية محضة حتى تخضع للمنهج العقلي، ولكنها قضية خبرية؛ لأنها من الغيبيات، والعقل يدل عليها.

والخبر الصحيح أثبته في جميع الشرائع السماوية، كما ذكر ابن القيم: أن إثبات المعاد الجسماني أمر اتفق عليه أهل الكتب السماوية، من المسلمين والنصارى واليهود[1]، وإنما أنكره الفلاسفة الدهرية، لمجرد المطالبة بالمشاهدة الحسية للحياة

---

(١) وألف الإمام الشوكاني رسالة سماها: «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» وله رسالة أخرى سماها: «المقالة الفاخرة في بيان اتفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة».

بعد الموت[١].

فالحياة الدنيا تمسي مسرحية من مسرحيات العبث، لو كانت هي نهاية المطاف، والصورة الكاملة للعدل تستكمل في الحياة الآخرة، فالإيمان باليوم الآخر من متقضيات الإيمان بالعدل الإلهي.

وَمَثَلُ دعوى الملاحدةِ، كمثل إجراء امتحان للطلاب ثم لا يقام بالتصحيح ولا بإعلان النتائج، وإثابة المتفوق، ونصح الكسول.

وكذلك كتاب القصص والتمثيليات، لا بد أن تنتهي القصة عندهم بالنهاية الأخلاقية، التي يتحقق فيها الجزاء الرادع للمجرم، والثواب الطيب للصالح.

---

(١) وقيل بأن الحكماء لم يثبتوا المعاد الجسماني لكنهم جعلوها من الممكنات، انظر: شرح المقاصد ٢/ ٢٢٥- بيان تلبيس الجهمية ١/ ٢٢٣.

(٢٠) أَيْ بُنَيّ اسمعْ وصَايا جمعتْ حِكماً خُصّتْ بها خيرُ المِلَلْ

«بني»: تصغير ابن مضافاً إلى ياء المتكلم، وقرأه الجمهور -في القرآن- بكسر الياء المشددة، وقرأه حفص عن عاصم بفتح الياء المشددة، وأصله «يا بنيا» بالألف، وهي لغة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم.

والتصغير يأتي لأغراض متعددة كالتدليل والتحبب وهو في مقام الوعظ كناية عن إمحاض النصح، وكمال الشفقة.

ويحتمل أن يكون الخطاب لابنه من النسب حقيقة[1]، ويحتمل أن يكون لغيره على سبيل العموم، وعلى وجه النصيحة، كما يقول الوعاظ: «يا غافلاً والموت يطلبه» من باب نداء النكرة غير المقصودة، ذكره القناوي[2].

وصايا: جمع وصية، وهي العهد والوصل، قال القرطبي: «هي كل شيء يؤمر بفعله ويعهد به في الحياة وبعد الموت، وخصصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت»[3].

والوصية عند الفقهاء: «الأمر بالتصرف بعد الموت»[4]، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت؛ ولأن الميت لما وصى بها، وصل ما كان فيه من أيام حياته بما بعده من أيام مماته، قاله الأزهري[5].

---

(١) ذكره الناظم في قوله:

جدي هو الصديق واسمي عُمَرُ وابني أبو بكرٍ وبنتي عائشة

الديوان ٤١٧.

(٢) فتح الرحيم ٩٨.

(٣) الجامع للقرطبي ٢/ ٢٥٩.

(٤) انظر: كشاف القناع ٤/ ٣٢٥.

(٥) انظر: مقاييس اللغة ٦/ ١١٦- تهذيب اللغة ١٢/ ١٨٧.

«حكما»: جمع حكمة، وهي اسم جامع لكل ما يمنع من الوقوع في الخطأ، وإذا اقترنت بالقرآن، فالمراد خصوص السنة النبوية.

«خير الملل»: هو ملة الإسلام.

وهذه الوصايا المذكورة مشتركة بين سائر الشرائع السماوية كما تدل عليه وصايا إبراهيم ويعقوب ولقمان التي حكاها القرآن، ولكن شريعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم اختصت بكمال بيانها، وشدة العناية بها.

(٢١) اطْلُبِ العلْمَ ولا تَكْسَلْ فَما أَبْعدَ الخيرَ على أَهلِ الكَسَلْ

«العلم»: هو إدراك المعلوم على ما هو عليه في الواقع، ويطلق على اليقين أيضاً.

«ولا تكسل»: من الكسل وهو الفتور والتثاقل، وضده النشاط والجد[١].

«الخير»: اسم جامع لأنواع الفضائل، وضده الشر.

والمعنى: احرص على طلب العلم، واجتهد في تحصيله، ولا تسأم من مذاكرته والاشتغال به؛ لأنك لو سئمت وتكاسلت فلن تصل إلى أي فضيلة من الفضائل، إذ الكسل طريق الحرمان، والسآمة آفة طالب العلم.

وقال الشاعر:

اطلبْ ولا تضْجرنْ من مطلب فآفةُ الطالب أن يضجرا

ألم تر أن الماء بتكرارهِ في الصخرةِ الصَّماء قد أثّرا

وقال الشاعر:

تعلم فإن العلم زين لأهله وفضل وعنوان لكل المحامد

وكن مستفيداً كل يوم زيادة من العلم واسبح في بحور الفوائد

والعاقل إذا أصابه الملل، أعطى نفسه حظها من المباح، حتى تنشط بعد ذلك على طلب العلم.

(١) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ١٧٨- تاج العروس ٣٠/ ٣٢٦.

وإذا تعسر عليك فهم شيء من العلم، وضجرت نفسك بذلك، فاترك النظر حيناً ثم ارجع إليه مرة أخرى ينفتح لك المغلق، قال المعري:

العِلْمُ كالقفلِ إن ألفيته عَسِراً فخلِّهِ، ثم عاودهُ لينفتحا

والعلم حياة القلوب، ومصباح البصائر، ومفتاح الخيرات، وهو أشرف الأحساب، وفوق الأنساب، ولا يحصل للإنسان إلا بالهمة العالية، التي تتحطم على صخرتها العوائق، كما قال ابن الجوزي: «العلم والعمل توأمان، أمّهما علو الهمة» [(١)].

وإنما حث الشاعر ولده على طلب العلم بعد التقوى؛ لأن بهما كمال الإنسان وصلاحه، وبهما تتحقق نهضة الشعوب وصلاح المجتمعات ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

ولهذا كان أول أمر لنبيه هو الأمر بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، بل أمره بطلب الزيادة منه فقال: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

(١) اليواقيت الجوزية:٩٥.

(٢٢) واحْتفلْ للفقـهِ في الدين ولا تَشْـتغلْ عنـه بـمالٍ أو خَـوَلْ

«واحتفل»: من الاحتفال وهو الاهتمام الزائد بالشيء، ويطلق على الاجتماع أيضا؛ لأنه يدل على الاهتمام بالشيء الذي عقد له الاجتماع[(١)].

«الفقه»: لغة: الفهم والإدراك.

والمراد بالفقه في الدين العلم بأحكام الشريعة، سميت ديناً لقيامها على معنى الطاعة والجزاء، فمن أطاع جوزي بالجنة، ومن عصى جوزي بالنار.

«المال»: ما ينتفع به الإنسان، يذكر ويؤنث، وعند أهل البادية: النَّعم خاصة، وقول الفقهاء: «ما يتمول» أي: ما يعد مالاً في العرف[(٢)].

«الخول»: هو الخَدَم والحشَم وزناً ومعنى[(٣)]، وهو مأخوذ من التخويل بمعنى التمليك ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

والمعنى: اجمع همتك وذهنك للتفقه في أحكام الشريعة، ولا تشتغل عن طلبه بالأموال والخدم والحشم، فإنها قواطع تصرفك عن تحصيله.

والمراد: الاشتغال الزائد عن الحد المعتدل، أما الاشتغال بالقدر الذي يسد به حاجته فهو مطلوب شرعاً، ولا بد للإنسان منه، وهو عون على طلب العلم.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٨١- تاج العروس ٢٨/ ٣١٢- المصباح المنير ١٤٢.

(٢) انظر: تاج العروس ٣٠/ ٤٢٨- المصباح المنير ٢/ ٥٨٦.

(٣) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٢٣٠- تاج العروس ٢٨/ ٤٤٤.

(٢٣) واهْجُرِ النومَ وحَصِّلْهُ فمنْ يَعْرِفِ المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ

«النوم»: الاسترخاء الطبيعي الذي تتعطل معه الأعضاء عن الحركة، وقيل هو: وفاة النفس من غير موت.

قال بعض العقلاء: النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل(١).

«يحقر»: أي يراه حقيراً، أي هينا.

والمعنى: اترك النوم، وحصل الفقه في الدين، ولا تستعظم ترك النوم في تحصيل العلم؛ لأن من يعرف قدر مطلوبه لا يعبأ بما أعطاه في سبيل الحصول عليه، كما قال أبو فراس:

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناءَ لم يُغْلِهِ(٢) المهر

والترك هنا ليس تركاً مطلقاً، فإن هذا يُهلك النفس، ويقطعها عن تحصيل المطالب، وإنما المراد ترك المقدار الزائد على الحاجة.

وخص النوم دون غيره من القواطع؛ لأن محله الليل، حيث تتفرغ فيه الحواس عن الشواغل الدنيوية غالباً.

ولذةُ العلم أعظم من لذة النوم، وله سرور نفسي لا يعرفه إلا العلماء.

قال أبو هلال العسكري:

أبيتُ بالليل غريبَ الكرى يأخذُ مني الدرسُ والكتبُ

---

(١) أما الكيفية التي يتم بها النوم فلا تزال غامضة عند العلماء، رغم التقدم العلمي، والتطور الآلي، ولا تزال مختبرات النوم في العالم تطلع علينا بنظريات مختلفة لا يقين فيها، فسبحان القائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

(٢) يضبط «يُغْلِهِ» بضم الياء وسكون الغين وكسر اللام، أصله يُغْليه مثل يُغْنيه ويُغْنه.

وقيّم الحكمة في أنملي ويصوغ ما يسبكه اللبُّ
ومذ عرفنا لذة العلم لا يُعجبنا الحلو ولا العذبُ[١]

وقال الشاعر:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي من وصلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وتمايلي طرباً لحلّ عويصةٍ أشهى وأحلى من مدامة ساقي
وصريرُ أقلامي على أوراقها أحلى من الدوكاه[٢] والعشاقِ
وألذُّ من نقر الفتاة لدُفِّها نقري لألقي الرمل عن أوراقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيته نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي!![٣]

وهكذا كل المطالب الدينية، لو عرف قاصدها ما أعده الله له في الآخرة من الأجر العظيم، والنعيم المقيم، هانت عليه مشقات الدنيا، والحرمان من شهواتها المباحة، وهان عليه ما يصيبه من المصائب كنقصان الرزق والولد ونحوهما.

والنوم ضرورة حياتية، فالإنسان والحيوان إذا حرم من النوم ظهرت عليه علامات الإعياء، وانهارت قواه، ونقص وزنه، فإذا استمر في ذلك مات، وحاجة الإنسان والحيوان إلى النوم أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، ولقد أُجريت تجارب على بعض الكلاب، فحرمت من النوم، وأعطيت الغذاء الكامل، وبعضها حرم من الغذاء، وترك لينام، فالكلاب التي حرمت النوم ماتت بعد خمسة أيام، والكلاب التي حرمت الغذاء عاشت عشرين يوما.

(١) انظر: ديوان المعاني للعسكري ٢/ ٧٨- الحث على طلب العلم للعسكري ٤٧.
(٢) يحتمل أن يريد الطيب أو من الاجتماع والاختلاط بالعشاق.
(٣) اكتفاء القنوع ٢٣٤ واختلف في نسبتها فقيل: للزمخشري وقيل للشافعي وقيل للألوسي، والأول أشبه.

إن النوم تتجدد معه الخلايا والأنسجة، ويصفي الدم من السموم، ويحمي الجلد والجسم من الضعف والشيخوخة، وأطباء التجميل ينصحون المرأة بالنوم للحفاظ على جمالها، ولا سيما نوم الظهر «القيلولة» الذي يسمى عند الإنكليز: «نوم الجمال».

فالنوم نعمة من الله تعالى، ولهذا امتنَّ الله تعالى بها في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبأ:٩]، وجعله من الآيات الدالة عليه فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم:٢٣].

(٢٤) لا تقـلْ قـد ذَهبـتْ أربابُـه كُلُّ منْ سَار على الدربِ وصَلْ

«الدرب»: مفرد، جمعه دروب، والمراد به الممر بين جبلين، أو الباب الواسع[١].

قال الفيومي: «وليس أصله عربياً، والعرب تستعمله في معنى الباب، فيقال لباب السكة: درب، وللمدخل الضيق: درب؛ لأنه كالباب لما يُفضي إليه»[٢].

وهذا البيت جواب سؤال مقدر، كأن قائلا قال: كيف يتيسر الاشتغال بالعلم، ونبلغ مرادنا منه، وقد انقرض بانقراض أهله؟!.

فأجاب الناظم: لا تقل قد مضت أصحابه بموتهم؛ لأن سنة الله تعالى في الخلق على مر الأعوام، أنه لا يخلو زمن من بعض العلماء الذين تقام بهم الحجة، ويعرف بهم الشرع[٣]، كما ثبت في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة»[٤].

ومن سنة الله تعالى أيضاً أن كل مجتهد له نصيب، وكل آخذ بالأسباب يبلغه الله ما أراد بحسب مشيئته تعالى.

ولكن شرط الوصول أن يأخذ بالأسباب على الوجه الصحيح، وإلا لم يبلغ مراده من العلم، فكم طالب علم بذل عمره ولم يصل إلى المراد؛ بسبب عدم معرفته الطريقة الصحيحة، والمنهج السليم في طلب العلم، كما قيل: حرمنا الوصول عندما ضيعنا الأصول.

---

(١) انظر: تاج العروس ٢/ ٤٠٢- المعجم الوسيط ١/ ٢٧٧- المحكم لابن سيدة ٩/ ٣٠٩- لسان العرب ١/ ٣٧٤.

(٢) المصباح المنير١٩١.

(٣) انظر: فتح الرحيم ١٠٨.

(٤) رواه البخاري بنحوه ٦٨٨١- ومسلم ١٩٢٣.

(٢٥) في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدَا وجمالُ العلمِ يا صاحِ العملْ

«الإرغام»: الإذلال والإهانة، كأنه لصق بالرَّغام هواناً، والرَّغام: التراب، ومنه قولهم: «رغم أنفه»، ويقال: أرغمت فلانا، أي: أسخطته وأغضبته[١].

«العدا والأعداء»: جمع عدو، وهو ضد الصديق.

«يا صاح»: أصله يا صاحب، لكنه دخله الترخيم، وهو شاذ لأنه ليس عَلماً، والقياس ألا يرخم، ولكنهم تسامحوا فيه لكثرة الاستعمال، قال الحريري:

وقولهم في صاحب يا صاحِ شذّ لمعنى فيه باصطلاح

وقيل: أصله يا صاحبي، ولا يجوز ترخيم المضاف، إلا في هذه الكلمة بناء على السماع[٢].

والمعنى: أن الإكثار من العلم، والازدياد منه، يتضمن إذلال العدو الحاسد، وإهانته، ولن تجازي عدوك بمثل اشتغالك بالعلم والعمل؛ لأن من زاد علمه وعمله حسنت أخلاقه، وكملت صفاته، وعلت مكانته، والحاسد يؤذيه ذلك.

والعلم إنما يكون جمالاً لصاحبه، وكمالاً لحامله، إذا صاحبه العمل.

قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: «لا يكون الرجل عالماً حتى يكون بالعلم عاملاً».

وقال سفيان بن عيينة: «من عمل بما علم فهو العالم، ومن ترك العمل بما علم فهو الجاهل» .

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٤١٣- تاج العروس ٣٢/ ٢٦٧- المصباح المنير ٢٣١.

(٢) انظر: مختار الصحاح ١٤٩- الكتاب لسيبويه ٢/ ٢٥٦- المقتضب ٤/ ٢٤٣.

وقال بشر بن الحارث الحافي لطلبة الحديث: «أدّوا زكاة هذه الأحاديث، فقالوا: وكيف تؤدى زكاتها ؟ قال: أن تعملوا من كل مئتي حديث بخمسة أحاديث»[١].

وعدم العمل من العالم قبح وفساد، يجعله من شرّ الناس، كما قال بعض السلف -لما سئل أي الناس أشرّ ؟- قال: «العالم إذا فسد».

وقديماً قيل: «علم بلا عمل كشجر بلا ثمر».

وحامـلُ المسـكِ إذا كان مزكوماً فـلا حـظَّ لـه فيـها حَـمَلْ

(١) تاريخ بغداد ٧/ ٦٩- تاريخ دمشق ١٠/ ١٨٤.

(٢٦) جَمِّـلِ المنطـقَ بالنحـوِ فَمَـنْ يُحْرمِ الإعـرابَ بالنطـقِ اخْتبلْ

«المنطق»: مصدر ميمي بمعنى النطق أي الكلام، ثم صار عَلَماً على عِلْم مخصوص وهو: «العلم بقواعد تمنع الفكر من الخطأ».

و «النحو»: علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلمات إعراباً وبناءً.

وتضافرت الروايات على أن أول من وضعه هو أبو الأسود الدؤلي، بإشارة من على -رضي الله عنه-، وسمي نحواً لقول علي -رضي الله عنه-: «انح هذا النحو»[١].

و «الإعراب»: هو اختلاف آخر الكلمة، باختلاف العوامل لفظاً أو تقديراً، وأطلق هنا بمعنى النحو.

«اختبل»: من الاختبال وهو الدهشة والتحير.

وقوله: «يحرم» يجوز فيه الرفع على أن «من» موصولة، ويجوز الكسر على أن «من» شرطية، فيكون ما بعدها مجزوماً بالسكون، وكسر لالتقاء الساكنين، ذكره القناوي[٢].

والمعنى: زيّن كلامك، وحسن نطقك، بمعرفة النحو والإعراب، فمن يجهل أحكامه يخطئ في كلامه، ويقبح لفظه، ويتحير لعدم معرفة الصواب من الخطأ.

وفي البيت ذكر فائدة علم النحو، وهو معرفة صواب الكلام وخطئه.

(١) انظر: منهاج السنة النبوية ٧/ ٥٢٩.
(٢) انظر: فتح الرحيم ١١٣.

فالنحو جمال الألسنة، وكمال النطق، وملح العلوم، وسلم المعارف، وبه تعلم معاني الكتاب والسنة.

النحوُ قنطرةُ الآداب هل أحدٌ يجاوزُ البحر إلا بالقناطيرِ

لو تعلمُ الطيرُ ما في النحوِ من شرَف حَنَّتْ إليه ودقَّتْ بالمناقيرِ

إنَّ الكلامَ بلا نحوٍ يُحسنه نبحُ الكلاب وأصواتُ السنانيرِ

وقال الآخر:

النحو زين للفتى يكرمه حيث أتى

من لم يكن يحسنه فحقُّه أن يسكتا

وقال الآخر:

أما ترى النحوي في مجلسه كهلال بان من تحت السَّعفْ

تخرج الألفاظ من فيه كما يخرج الجوهر من بطن الصَّدفْ

وطلب النحو آكد في حق طالب الحديث، حتى لا يرويه ملحوناً، قال الأصمعي: «إن أخوف ما أخاف على طالب العلم، إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؛ لأنه لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه»[1].

وجاء نحو هذا عن حماد بن سلمة أنه قال لإنسان: «إن لحنت في حديثي فقد كذبتَ علي، فإني لا ألحن».

(١) انظر: تاريخ دمشق ٣٧/ ٨٠- الإلماع ١٨٤- تدريب الراوي ٢/ ١٠٦.

قال الحافظ العراقي:

وليحذر اللحَّانَ والمصحِّفا على حديثه بأن يحرفا

فيدخلا في قولِهِ مَنْ كَذَبا فحقٌّ النحوُ على من طلبا[1]

(١) انظر: فتح المغيث ٢/ ٢٥٧.

(٢٧) انظِمِ الشعْرَ ولازمْ مذهبي فاطِّراحُ الرِّفدِ في الدنيا أقلْ[١]

«انظم»: وفي الديوان: «وانظم» على وزن اضرب، تقول: نظمت الخرز، أي: جعلته في نظام وهو السلك[٢].

والشعر هو: الكلام الموزون المقفى.

«ولازم»: من الملازمة وهي التعلق والمصاحبة.

«مذهبي»: أي طريقتي.

«الرفد»: -بكسر الراء- هو العطية والإعانة.

قوله: «أقل» بالقاف، ويمكن أن يكون بالفاء من الأفول[٣].

والمعنى: قل الشعر تأدباً لا تكسباً، ولا تجعل مقصودك من نظم الشعر جمع الأموال، ومنافقة الكبراء، وأخذ العطايا كما يفعل أكثر الشعراء.

وهذه طريقة الناظم -رحمه الله- التي عبر عنها بقوله:

جمعتُ إلى العلم نظماً له غصون حمائمها تسجعُ

حمى الله شعري عن ذلةٍ فلا يستكين ولا يخضعُ

وإن اكتساب الغنى بالمديح مهين له مؤلم موجعُ

---

(١) عارض عبد القادر بن بشر الحلبي هذا البيت فقال:

عمر الورديّ لو يعلم ما صنعت قوم بأهل الأدب

لم يقل في النصح يوماً لابنه انظم الشعر ولازم مذهبي

سلك الدرر ٢ / ٤٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٤- القاموس المحيط ١٥٠٠.

(٣) وأصلحه د. عبدالعزيز الحربي: (في اطراح الرفد، فالدنيا أقل).

وقال أيضاً:

وما أنا شاعر حاشا علومي ولستُ أرى التكسب بامتداحي

فلي من نعمة الرحمن مالٌ يصون عن احتياج واجتياح

وقال أيضاً: «ولعمري ما أنصفني من أساء بي الظن، وقال عني: كيف رضي مع درجة العلم والتقوى بهذا الفن، فالصحابة -رضي الله عنهم- كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون...»(١).

ثم قال:

بَسّي من الشعر بسي لا أرتضي بالأخس

أكون عفاً بريئاً وما أبرئ نفسي

والشعر جائز إذا خلا عن المحرم، كهجاء المسلم والتغزل بمعين، وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على جوازه إذا كان كذلك(٢).

والتصدي لنظم الشعر لا يصلح له كل أحد، وإنما يصلح له من أعطاه الله الملكة الشعرية، والثروة اللغوية، والحاسة السادسة كما يقال.

قال الشاعر:

الشعر صعبٌ وطويل سلَّمُهْ إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمُهْ

زلت به إلى الحضيض قدمُهْ والشعر لا يطيعه من يظلمه

---

(١) خزانة الأدب ٢/ ٤٦٦.

(٢) انظر: الكافي لابن عبدالبر ١/ ٤٦٣- شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٤- الوسيط ٧/ ٣٥١- أضواء البيان ٦/ ١٠٥.

فإن كنت كذلك وإلا فتنحَّ عن طريق القوافي:

الشعراء فاعلمنّ أربعةْ فشاعر يجري ولا يُجْرى معهْ

وشاعر ينشد وَسط المعمعةْ وشاعر من حقه أن تسمعهْ

وشاعر من حقه أن تصفعهْ

ومن وصايا ابن الوردي لمن يتصدى للنظم قوله:

إذا أحببتَ نظم الشعر فاخترْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذي امتناعِ

ولا تكثرْ مجانسةً ومكّن قوافيه وَكِلْه إلى الطباع

وقال أبو الفتح البستي:

إذا انقاد الكلامُ فَقُدهُ عفواً إلى ما تشتهيه من المعاني

ولا تُكره بيانك إن تَأبّى فلا إكراه في دين البيان

(٢٨) فهو عنوانٌ على الفضل وما أحسن الشعر إذا لم يُبتذلْ

«العنوان»: -بضم العين وكسرها- ما يستدل به على الشيء ويظهره.

و «الفضل»: هو الزيادة في حسن الصفات.

و «الابتذال»: الامتهان والانتقاص.

والمعنى: أن نظم الشعر بالشرط السابق دليل على فضل صاحبه، وحسن صفاته، وأصالة معدنه، وما أجمل الشعر إذا لم يمتهن بالكذب في القول، ولم ينتقص بالنفاق في المدح، والاعتداء في الهجاء.

فهذا حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من شعراء الصحابة رفعهم شعرهم، ودلّ على فضلهم، وحازوا المراتب العالية بشعرهم الذي نصروا به الإسلام، ودافعوا فيه عن الحق.

أما شعراء التسول وباعة الشعر، فهم كما قال بعض الشعراء:

الكلب والشاعر في حالةٍ يا ليت أني لم أكن شاعرا

أما تراه باسطاً كفه يستطعم الوارد والصادرا

وقال ابن المعذل:

أيّ ماءٍ لحر وجهك يبقى بين ذلِّ الهوى وذلِّ السؤال

وقال آخر:

وما شعراؤكم إلا ذئابٌ تلصصُ في المدائح والسِّبابِ

وهجر أحدهم الشعر لما توقف العطاء، وقال:

قالوا: هجرتَ الشعرَ، قلتُ: ضرورةً ... بـابُ الدواعـي والبواعث مغلقُ

خلـتِ الديـارُ فـلا كريـمٌ يُرتجى ... منـه النـوال ولا مليـح يعشـقُ

ومـن العجائـب أنـه لا يُشـترى ... ويخـانُ فيه مـع الكسـاد ويُسرقُ

وكانت العرب -قديما- لا تتكسب بالشعر، وإنما تقوله مفاخرة، أو فكاهة أو مكافأة، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلات، فكان أول المتكسبين بالشعر في قول ابن رشيق القيرواني.

وذهب أكثر العلماء بالشعر إلى أن أول المتكسبين بالشعر هو الأعشى، الذي جعل الشعر متجراً يتجر به في البلدان، وقصد الكبراء، حتى ملوك العجم.

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر، فصار يَسْأل به الخاصة والعامة حتى ذل الشعراء، وحُرم السائل، وعُدم المسؤول.

ولهذا كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب، لما في الشعر من تخليد المآثر، فلما تكسبوا بالشعر، وجعلوه طُعمة، صار الخطيب فوق الشاعر[1].

(١) انظر: العمدة لابن رشيق: ٨٠ - ٨٢.

(٢٩) مات أهل الجود لم يبقَ سوى مُقرفٍ أو من على الأصل اتَّكَلْ

«الجود»: هو الكرم والعطاء، وقال الراغب: «الجود: بذل المقتنيات مالاً كان أو علماً»(١).

«مقرف»: هو الرذيل، ورديء الأصل.

والمعنى: أن الكرام ماتوا، وبقي الأراذل والكسالى من الناس، الذين يعتمدون على أنسابهم، ولم يدروا أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

وهذه سنة الله في خلقه، أن يموت الأمثل فالأمثل، والأكمل فالأكمل، ولا سيما عند نهاية الدنيا، واقتراب الساعة، حيث ينقرض الأخيار، ويبقى الأشرار، وعليهم تقوم الساعة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله باله» رواه البخاري في صحيحه، تحت عنوان: «باب ذهاب الصالحين» من حديث مرداس الأسلمي -رضي الله عنه-(٢).

والحفالة والحثالة بمعنى واحد، وهو الردئ من كل شيء.

ومعنى «لا يباليهم ا لله باله» أي: لا يقيم لهم وزناً، ولا يعبأ بهم.

وترك السعي لتحصيل الكمالات اتكالاً على النسب من علامات الجهل، والعاقل يعلم أن كماله بأدبه لا بنسبه.

---

(١) انظر: المفردات ٢١١- التعاريف ٢٥٨.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٦٤ برقم ٦٠٧٠.

قال الشاعر:

لسنا وإن كرُمت أوائلنا — أبداً على الأحساب نتكلُ

نبني كما كانت أوائلنا — تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقد أحسن القائل:

يا أيها المرء كن أخا أدب — من عجم كنت أو من العرب

إن الفتى من يقول ها أنذا — ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال ابن الرومي:

فلا تفتخر إلا بما أنت فاعل — ولا تحسبن المجد يورث بالنسبْ

إذا العود لم يثمر وإن كان شعبة — من الثمرات اعتده الناس في الحطبْ

وفي المثل: «كن عصامياً ولا تكن عظامياً»، يريدون قول الشاعر:

نفسُ عصام سودت عصاما — وعلمته الكرّ والإقداما

وصيرته ملكاً هماما

وعصام هو ابن شهر بن الحارث الذبياني حاجب النعمان بن المنذر، وكان من فرسان العرب وفصحائهم(١).

(١) انظر: الأنساب ٣/ ٧- الإكمال ٣/ ٣٤٩.

(٣٠) أنا لا أختار تقبيلَ يدٍ قطعُها أجملُ من تلك القُبَلْ

«القبل»: جمع قبلةٍ، على وزن غُرفة.

والمعنى: أنا لا أُقبِّل يد الشخص الموصوف بالصفات القبيحة كالكفر والفسق والظلم والبخل، فإن قطع اليد أحسن من تقبيلها، كما قيل في الأمثال: «تقبيل يدٍ لم تنفع أحق أن تقطع».

وأما إن كان الشخص موصوفاً بالدين والعلم والفضل فجائز تقبيل يده، كتقبيل يد النبي أو العالم أو الوالد.

وبوب الإمام أبو داود باباً في سننه فقال: «باب في قبلة اليد»، وذكر حديث ابن عمر -رضي الله عنه-: «فدنونا -يعني من النبي صلى الله عليه وسلم- فقبلنا يده»[١].

وبوب الإمام ابن ماجه باباً في سننه[٢] فقال: «باب الرجل يقبل يد الرجل»، وذكر فيه حديث ابن عمر السابق، وحديثَ صفوان بن عسال «أن قوماً من اليهود قبلوا يد النبي صلى الله عليه وسلم ورجليه» ورواه الترمذي بمعناه وقال: «حسن صحيح»[٣].

وروى أبو داود في سننه حديث زارع بن عامر -وكان في وفد عبد القيس- قال: «لما قدمنا المدينة، فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم ورجله...»[٤] حسنه ابن عبد البر وضعفه آخرون.

(١) سنن أبي داود ٤/ ٣٥٦.
(٢) سنن ابن ماجة ٢/ ١٢٢١.
(٣) سنن الترمذي ٥/ ٧٧.
(٤) سنن أبي داود ٤/ ٣٥٧.

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: «ما رأيت أحداً أشبه سمتاً وهدياً ودلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت فأخذت بيده، فقبلته، وأجلسته في مجلسها»[١]، وقال ابن مفلح: «إسناده صحيح»[٢].

قلت: وأحاديث قبلة اليد متعددة، يقوي بعضها بعضاً، وتدل على الجواز.

وقال المروزي: «سألت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- عن قبلة اليد، فقال: إن كان على طريق التدين فلا بأس، قد قبّل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -، وإن كان على طريق الدنيا فلا...».

ورخص فيه أكثر العلماء على وجه الدين، وكرهه آخرون كمالك وغيره.

لكن قال الإمام ابن تيمية: «تقبيل اليد لم يكونوا يعتادونه إلا قليلاً».

وقال سليمان بن حرب: «هي السجدة الصغرى».

وقال ابن عبد البر: «كان يقال: تقبيل اليد إحدى السجدتين».

وقبض هشام بن عبد الملك يده من رجل أراد أن يقبلها، وقال: «مه، فإنه لم يفعل هذا من العرب إلا هَلُوع، ومن العجم إلا خضوع».

قلت: هذا في تقبيل أهل الدنيا.

وقال بعض السلف: «قبلة الوالد عبادة، وقبلة الولد رحمة، وقبلة المرأة شهوة، وقبلة الرجل أخاه دين».

---

(١) رواه النسائي في الكبرى برقم ٨٣٦٩، وأبو داود برقم ٤/ ٣٥٥- والترمذي ٣٨٧٢- وصححه الحاكم ٤٧٥٣- وابن حبان ٦٩٥٣.

(٢) الآداب الشرعية ١/ ٤٣٧.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: «وأما ابتداء الإنسان بمد يده للناس ليقبلوها وقصده لذلك، فهذا ينهى عنه بلا نزاع كائناً من كان، بخلاف ما إذا كان المقبل هو المبتدئ لذلك»[1].

---

(١) انظر: مختصر الفتاوى المصرية ٥٦٣- الآداب الشرعية ٢/ ٢٤٨.

(٣١) إن جَزَتْني عن مديحي صرتُ في رقِّها أو لا فيكفيني الخجَلْ

«المديح والمدح» هو: الثناء بالصفات الجميلة، سواء كانت خلقية أم اختيارية، ومن هنا كان المدح أعم من الحمد.

«والرق»: -بكسر الراء- العبودية، فيقال: رجل رقيق أي عبد.

والرق -بالفتح- الجلد يكتب فيه، والكسر لغة قليلة فيه، وقرأ بها بعض القراء في قوله تعالى: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ [الطور:٣].

«والخجل»: الاستحياء والتحيّر.

والمدح جائز بشروط:

١- أن يكون بالحق والصدق، لا بالكذب والنفاق.

٢- أن يكون باعتدال، فلا يكثر منه ويتخذه حرفة.

٣- أن يأمن على الممدوح من الفتنة[١].

والمعنى: أن السبب الحامل على عدم التقبيل، هو أن هذه اليد إن أعطتني شيئاً من الدنيا في مقابلة مدحي لها صرتُ رقيقاً للإحسان، وعبداً للعطية، وإن لم تعطني شيئاً فيكفيني الخجل من الله؛ لأني قبلت يد الفاسق، ومن الناس لأني لم أنل العطية، فأنا بين رق الإحسان وخجل الرد، ذكره القناوي بمعناه[٢].

والمؤمن العاقل يستغني بخالق الناس عن الناس، ويطرق باب الكريم الذي يفرح بسؤال العبد له.

(١) انظر: المفهم لأبي العباس القرطبي ٦ / ٥٩.
(٢) فتح الرحيم ١١٩-١٢٠.

قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢]، وقال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧].

وفي الحديث الثابت: «وإذا سألت فاسأل الله»[١].

وبايع النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة، على عدم سؤال الناس شيئاً[٢]؛ لأن السؤال فيه ذل وافتقار.

قال طاوس -رحمه الله-: «إياك أن تطلب حوائجك ممن يغلق بابه دونك، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمر أن تسأله ووعدك أن يجيبك».

وقال الفضيل -رحمه الله-: «أحب الناس إلى الناس من استغنى عن الناس، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إلى الناس، وأحب الناس إلى الله من سأله واستغنى به عن غيره، وأبغض الناس إليه تعالى من استغنى عنه وسأل غيره».

قال الشاعر:

لا تسألنّ بُنيَّ آدم حاجةً ... وسلِ الذي أبوابه لا تحجَبُ

اللهُ يغضب إن تركتَ سؤاله ... وَبُنيَّ آدم حين يُسأل يغضَبُ[٣]

وقال الحسن البصري: «لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم».

وقال أعرابي لأهل البصرة: «من سيدكم؟ قالوا: الحسن البصري، قال: بم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم».

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٥١٦ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) رواه مسلم برقم ١٠٤٣.

(٣) العزلة للخطابي ٦٧.

وقال بعض العقلاء:

الحــرّ عبــد مــا طمــعْ والـعــبــد حــر مــا قــنــعْ

وقال بعض الشعراء:

أفادتني القناعة كلَّ عزٍّ وهل عزٌّ أعزُّ من القناعهْ

فصيِّرها لنفسك رأس مالٍ وصير بعدها التقوى بضاعه

تحُزْ ربحاً وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بصبر ساعه

ومحل القناعة أمور الدنيا وشهواتها، وأما في أمور الآخرة ومنازلها، وميدان الفضائل ومراتبها، فالطموح محمود، والقناعة فيها مذمومة، وفيه يقول أحمد شوقي:

شبابٌ قُنعٌ لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

وشعار المؤمن في ذلك: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤].

(٣٢) أعذب الألفاظ قولي لكَ «خُذ» وأمرُّ القول نطقي بِلَعَلْ

«أعذب»: يقال: عَذُب الماء عذوبة، أي: ساغ مشربه فهو عذب، ضد الملح.

«أمرُّ»: من المرارة ضد العذوبة، يقال: أمرَّ الشيء ومَرّ فهو مُرٌّ، والأنثى مُرّة.

لعل: حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، وفيه لغات متعددة، وله معان أشهرها: التوقع والترجي، ثم التعليل، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وفي بعض النسخ: «وأمر اللفظ نطقي»، وفي بعضها: «وأمر القول قولي».

والمعنى: أن أحلى الكلمات عندي كلمة «خذ»، وأمرها وأثقلها على نفسي كلمة «لعل» في قولي: لعل فلاناً يعطينا، أي التي تفيد توقع العطاء، أو المراد: قول «لعل» عند وعد السائل بالعطاء، فهو مذموم عند الكرام، كما قيل: اعتذار مقبول خير من وعد ممطول.

قال بعض الحكماء: «لا شيء أحلى من قولك: خذ، خصوصاً إذا كان قصدك وجه الله تعالى، ولا شيء أمر من قول الإنسان لغيره: أعطني، خصوصاً إذا كان المسؤول لئيماً».

وإنما كان السؤال مرّاً؛ لما فيه من إراقة ماء الوجه، الذي هو أشرف الأعضاء، قاله القناوي.

وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، واليد العليا هي المعطية، واليد السفلى هي الآخذة.

وكان صلى الله عليه وسلم أكرم الناس وأجودهم، كما قال أنس -رضي الله

عنه-: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» رواه مسلم.

وهو أحق بقول الشاعر:

ما قال «لا» قط إلا في تشهده　　　لـولا التشـهد كانـت لاؤه نعـم

وهذا من صفات أهل الكرم، أما أهل البخل فإن أعذب الألفاظ عندهم قولهم للسائل: لا، ويقولون: «قول (لا) يدفع البلا، وقولُ (نعم) يزيل النعم»!!!.

ويقولون: من فضل «لا» أنها افتتاح كلمة التوحيد.

(٣٣) مُلك كِسرى تُغنى عنه كسرةٌ وعن البحر ارتشافٌ بالوشلْ

«كسرى»: -بكسر الكاف وفتحها-، لقب ملوك الفرس.

والنسبة إليه: كسروي وكسرواني، وكانت العرب تسمي (قيصر) لمن ملك الشام والجزيرة من الروم، و(كسرى) لمن ملك الفرس، و«تبّع» لمن ملك اليمن و(النجاشي) لمن ملك الحبشة، و(المقوقس) لمن ملك الإسكندرية، و(فرعون) لمن ملك مصر كافراً، و(بطليموس) لمن ملك الهند، ذكره ابن كثير في تاريخه[١].

والكسرة: القطعة من الشيء، ومنه كسرة الخبز.

«ارتشاف»: وفي نسخة «اجتزاء»، والرشف والارتشاف: المص وتناول الماء بالشفتين، ومنه قولهم: «الرشف أنقع»، أي شربه قليلاً قليلاً أسكن للعطش، وبه سمى أبو حيان كتابه «ارتشاف الضرب»[٢].

«الوَشَل»: الماء القليل الذي يتقاطر من أعلى الجبل، وقد يطلق على الماء الكثير[٣].

والمعنى: أن ملك كسرى العريض تغنى عنه كسرة الخبز، والبحر الكثير الماء يغني عنه الماء القليل، فبالأول يندفع الجوع، وبالثاني يندفع العطش، كما قال الشاعر ابن سكرة الهاشمي:

الجوعُ يُطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثرُ حسرتي ووساوسي

والموت أنصف حين عدل قسمة بين الخليفة والفقير البائس[٤]

---

(١) انظر: البداية والنهاية ٤/ ٢٧٢- تفسير ابن كثير ١/ ٩١.

(٢) انظر: تاج العروس ٢٣/ ٣٤١- لسان العرب ٩/ ١١٩.

(٣) انظر: تهذيب اللغة ١١/ ٢٨٤- تاج العروس ٣١/ ٧٦.

(٤) يتيمة الدهر ٣/ ٣٣.

دخل عمر -رضي الله عنه- يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير، قد أثر في جنبيه، فبكى عمر -رضي الله عنه-، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك ؟ ، فقال: ذكرت كسرى وقيصر في الخز والديباج، وأنت رسول الله على هذا ، فقال له: أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ !، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟»[١].

وفي رواية مسلم: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله»[٢].

وقال مسعر بن كدام: «من صبر على الخل والبقل لم يُستعبد».

وهو القائل:

وجـدتُ الجوع يطـرده رغيـف ... وملء الكف من ماء الفرات[٣]

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

والنفـس راغبـة إذا رغَّبتَهـا ... وإذا تــردُّ إلى قـليـــلٍ تقنـعُ

(١) رواه البخاري برقم ٤٦٢٩.

(٢) رواه مسلم برقم ١٤٧٩.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٢١٩.

(٣٤) اعتبرْ «نحنُ قسمنا بينهم» تلقَهُ حقاً وبالحقِّ نزلْ

«اعتبر»: من الاعتبار، وهو: التأمل والاتعاظ.

«حقاً»: أي ثابتاً وموافقا للواقع.

«وبالحق نزل»: أي متلبساً بالحق.

والمعنى تأمل قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢]، ومثله قوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾[النحل:٧١]، تجده صدقاً، مطابقاً للواقع، فالناس فيهم الغني والفقير، والمأمور والأمير، فالله تعالى فرق بين خلقه في الأرزاق والآجال، وجعلهم فيها درجات، وكلٌ مبتلى، فالفقير مبتلى ليصبر، والغني مبتلى ليشكر.

والعاقل إذا علم تقلب الأرزاق وتفاوتها في ميزان القدر، رضيت نفسه، وأجمل في الطلب، والجاهل الذي لا يرى القدر من وراء ذلك، تضطرب نفسه، وربما يقع في الكفر والزندقة، كما قال بعضهم:

كم عالمٍ ضاقت مذاهبه وجاهلٍ جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرةً وصير العالم النحرير زنديقا

وحرص الحريص لا يزيد في الرزق فوق ما قدره الله تعالى، وبلادة البليد لا تنقص رزقه عما قدره الله تعالى، فالكل يجري بحسب القضاء والقدر.

كم من قـويٍ قـويٌ في تقلُّبه ... مهذبُ الرأي عنـه الرزق منحرف

وكـم ضعيفٍ ضعيفٌ في تقلُّبه ... كأنـه من خليـج البحر يغترف

هـذا دليـل عـلى أن الإلـه له ... في الخلق سرّ خفي ليس ينكشف

وقال الشاعر:

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق في اللوح مكتوبٌ مع الأجلِ

فلـو صبرنا لـكان الـرزق يطلبنا ... لكنـه خلـق الإنسـان مـن عجـلِ

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾[العنكبوت:٦٢].

(٣٥) ليسَ ما يحوي الفتى من عزمِهِ   لا ولا ما فات يوماً بالكسلْ

«ما يحوي»: أي ما يناله ويملكه.

«عزمه»: المراد بالعزم هنا: الجد والاجتهاد في الأمر.

والمعنى: أن ما ملكه الفتى واستولى عليه ليس باجتهاده، ولكن بقدر الله تعالى، وما فاته من الرزق ليس بسبب كسله، ولكن بقدر الله وإرادته.

فالمراد أن الحرص لا يجلب الرزق بذاته، ولا الكسل يمنع الرزق بذاته، بل كل ذلك بالقضاء والقدر.

وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب، فإنه مطلوب شرعاً، كما قال سبحانه: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

وقد أمر الله تعالى مريم عليها السلام بالأخذ بالأسباب وهي في حالة المخاض، فقال سبحانه: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

قال الشاعر:

ألم تر أن الله أوحى لمريم   فهزي إليك الجذع يَسَّاقطُ الرُّطبْ

ولو شاء أدنى الجذعَ من غير هزِّه   إليها ولكن كل شيء له سببْ[1]

ويجب مع مباشرة الأسباب التوكلُ على الله تعالى، ولا تعارض بينهما، كما صحّ في الحديث الشريف: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٢٤٣- الآداب الشرعية ٣/ ٢٦٤.

الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»[١]، فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق، وهذا أخذ بالأسباب مع التوكل.

وثبت في الحديث الآخر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأعرابي: «اعقلها وتوكل»[٢] يعني اعقل الناقة وتوكل على الله، فأمر بالأخذ بالأسباب والتوكل على خالقها.

(١) رواه الترمذي برقم ٢٣٤٤ وقال: «حديث حسن صحيح». ورواه ابن ماجة برقم ٤١٦٤- وصححه الحاكم ٧٨٩٤- وابن حبان ٧٣٠.

(٢) رواه الترمذي ٢٥١٧ من حديث أنس، ورواه ابن حبان من حديث عمرو ابن أمية الضمري ٧٣١، وجود العراقي إسناده.

(٣٦) اطرح الدُّنيا فمِنْ عاداتها تَخفض العالي وتُعلي من سَفَلْ

«الدنيا»: هي الدار الأولى التي نعيشها الآن، ويقابلها الدار الآخرة بعد الموت.

والمراد: أخرج حب الدنيا من قلبك[١]، أما الجوارح فهي مأمورة بالسعي ولكن باعتدال.

وإسناد الخفض والرفع إلى الدنيا مجاز؛ لأن الخافض والرافع في الحقيقة هو الله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

«سفل»: يجوز فيه فتح الفاء وضمها، والأول أولى.

والمعنى: لا تعلق قلبك بالدنيا، ولا تجعلها مقصودك، فإنها دار غرور وامتحان، والله تعالى -لهوان الدنيا عليه- يرفع فيها السفلة والجهال استدراجاً، ويخفض فيها الأشراف والفضلاء -من جهة المال والمناصب- ابتلاءً.

وهكذا كما جاء في الحديث الصحيح: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء»[٢]، لكنه أعطاها لهم لحقارتها وهوانها، أمام نعيم الآخرة.

وإذا أردت أن تعرف هوان الدنيا فانظر فيمن جعلها الله لهم، كما قيل: «وتراه رقاً في يد الأوغاد»[٣].

---

(١) أي على تقدير محذوف، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣]، أي حب العجل.

(٢) رواه الترمذي ٢٣٢٠ وقال: «حديث صحيح غريب»- وابن ماجة ٤١١٠- وصححه الحاكم ٧٨٤٧.

(٣) كما قال تعالى في فرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٨٨]، وقال عن وزيره قارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]. وانظرها اليوم تجدها في يد اليهود والنصارى، والأرذال من الناس غالباً.

والدنيا كالنتيجة في القياس، تتبع أرذل المقدمات، كما قيل:

إن الزمان لتابع أرذاله   تبع النتيجة للأخسّ الأرذل

وقال أبو الفتح البستي:

وتراه يعشق كل نذل ساقط   عشق النتيجة للأخس الأرذل

وأخذ نجم الدين الوارسي هذا التشبيه فقال:

لا تخطبن سوى كريمة معشر   فالعرق دساس من الطرفين

أولست تنظر في النتيجة أنها   تبع الأخسّ من المقدمتين

وهي كالميزان يرتفع فيه الناقص والخفيف، وينخفض فيه الكام والثقيل.

وقد قال الشاعر:

ومن كان للدنيا أشد تصورا   تجده عن الدنيا أشد تصونا[١]

وبمعرفة هذه الحقيقة، وإخراج شهوات الدنيا وحبها من القلب، يرتاح الإنسان، ويعيش عزيزاً ويحيا سعيداً، كما قال بعض الصالحين: «ربطت شهوات الدنيا بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت».

---

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٦٠٦.

(٣٧) عيشة الزاهد في تحصيلها عيشة الجاهد، بل هذا أذلْ

«الزاهد»: أي الراغب عنها، والراضي منها بالزهيد أي القليل، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف:٢٠].

«الجاهد»: أي المنهمك في تحصيلها.

«أذل»: من الذل -بالضم- وهو المهانة، ضده العز، ومنه قوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] أي: تواضع لهما، وكن ذليلاً.

والذل -بالكسر- الطواعية والانقياد، وضده الصعوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان:١٤].

وقال ابن عرفة: يقال لكل مطيع غير ممتنع: ذليل من الناس، ومن غيرهم ذلول[١].

والمعنى: أن حياة الزاهد في الدنيا كحياة المنهمك في تحصيلها، في أن كلاً منهما لا ينال إلا ما كتبه الله له، ثم أضرب عن التساوي، فقال: بل الشخص الحريص المبالغ في تحصيلها أذل عند الله وعند العقلاء، لما يترتب على حبها والتعلق بها من التذلل لأهلها، والانكسار لأصحابها.

قال يحيى بن معاذ -رحمه الله-: «في اكتساب الدنيا ذل النفوس، وفي اكتساب الآخرة عز النفوس، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب الفاني، ويترك العز في طلب الباقي».

(١) انظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢ / ٤٧-٤٨.

قال الشاعر أبو العتاهية:

تعـالى الله يـا سَـلْم بـنَ عمـرو أذَلَّ الحـرصُ أعنـاقَ الرجـالِ

وقديماً قيل: الحرص وعاء حشوه الذل، والحرص ذلٌ عاجل.

«أخرج الطمع من قلبك، يُحُلُّ القيدُ من رجلك».

وقال ابن عطاء: «ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع».

(٣٨) كم جهولٍ وَهو مُثرٍ مُكثرٌ وَعَليمٍ مَاتَ مِنها بالعِلَلْ

«كم»: تأتي على وجهين:

١- خبرية، بمعنى كثير، وتمييزها واجب الخفض، وهو المراد في البيت.

٢- استفهامية، بمعنى أي عددٍ، وتمييزها منصوب مطلقاً، خلافاً للفراء والزجاج وآخرين، والمراد هنا الوجه الأول.

«جهول»: أي كثير الجهل.

«مُثر»: بضم الميم وسكون المثلثة، أي كثير المال، ومنها الثروة وهي كثرة المال، ومكثر: عطف تفسير.

«عليم»: أي كثير العلم.

«العلل»: جمع علة، وهي ما يتغير به الحال، كالمرض.

والمعنى: أن الدنيا فيها جهلاء كثيرون ولكنهم أغنياء، وفيها علماء كثيرون ولكنهم فقراء، كابدوا فيها المشقة، حتى ماتوا كمدا وحسرة على أحوالها وأمراضها.

والفقر في العلماء كثير ابتلاء وامتحانا؛ وادخاراً لأجورهم يوم القيامة.

ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة بأمور، منها: اشتغالهم عن التكسب بطلب العلم، وتكميل أنفسهم، وتقديما للذة العلم على لذة المال.

ومنها -فيما أرى- صيانتهم لأنفسهم من مواقف الذل، واستمساكهم بمعاني العفة.

قال الشاعر صفي الدين المزجَّد الزبيدي ت: ٩٣٠هـ:

قلت للفقر أين أنت مقيم قال: في عمائم الفقهاءِ[١]

إن بيني وبينهم لإخاءً وعزيز عليّ قطع الإخاء

وقال آخر:

إن الفقيه هو الفقيرُ وإنما راء الفقير تجمعتْ أطرافُها

وقال الزمخشري عن نفسه:

غنيٌّ من الآداب غير أنني إذا نظرتُ فما في الكف غير الأناملِ

وقيل لبعض الحكماء: «لم لا تجتمع الحكمة مع المال؟ فقال: لعزّ الكمال».

وينبغي للعلماء أن يسعوا في طلب الرزق الحلال، وأن يكون لهم كسبٌ يغنيهم عن سؤال الخلق، والحاجة إليهم، ويُعفُّهم عن التذلل لأصحاب الثروات.

وقد استنكر ابن الجوزي ذل بعض العلماء عند أرباب الأموال، ورأى أن دواء ذلك في أمرين:

١- القناعة باليسير، كما قيل: من رضي بالخل والبقل لم يستعبده أحد.

٢- صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا، فإنه يكون سبباً لإعزاز العلم، وذلك أفضل من صرف جميع الزمان في طلب العلم، مع احتمال هذا الذل[٢].

---

(١) في رواية: «في محابر العلماء» انظر: شذرات الذهب ٨/ ١٧٠- النور السافر ١/ ١٢٧.

(٢) صيد الخاطر: ٢١١.

قلت: ومن تأمل سيرة كثير من العلماء، وجدهم حريصين على عفة النفس، وصيانة العلم، وذلك بالعمل، والتجارة الطيبة.

فهذا سعيد بن المسيب، وابن المبارك، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري، وغيرهم كانوا يعملون في التجارة؛ صيانة لأنفسهم من الحاجة إلى الناس.

وليس الغنى مذموماً إذا حصل بالحلال، وأجمَلَ صاحبه في الطلب، وأدى حق الله فيه، وكم كان في الأغنياء من صالحين، كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهم-.

ومن مكايد الشيطان الخفية، أنه زين للصوفية وبعض العلماء ترك التكسب، بحجة الزهد والإعراض عن الدنيا، حتى إذا خرجت الدنيا من أيديهم، أوقعهم في ذل السؤال، ومهانة الطمع، فباعوا دينهم من أجل المال[1].

(١) انظر: صيد الخاطر: ٢١.

(٣٩) كَمْ شجاعٍ لَمْ ينلْ مِنها الـمُنى ... وجبانٍ نَالَ غاياتِ الأمَلْ

«الشجاع»: من الشجاعة وهي قوة القلب، يقال: رجل شجاع وشجيع، وبنو عقيل يفتحون الشين حملاً على نقيضه وهو جبان.

«الـمُنى»: جمع مُنية، وهي ما يتمناه الإنسان ويرجوه.

والجبان ضد الشجاع، مأخوذ من الجبن، وهو ضعف القلب والخوف.

«غايات»: جمع غاية، وهي نهاية الشيء وآخره.

«الأمل»: الترقب، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله، كما قال كعب بن زهير:

أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويلُ

بخلاف الطمع، فإنه يستعمل فيما قرب حصوله، والرجاء بين الأمل والطمع، فإن قوي الخوف من عدم حصوله سمي أملاً.

والمعنى: أن كثيراً من الشجعان لم يبلغوا آمالهم ومقاصدهم في الدنيا، فعاشوا محرومين، بينما كثير من الجبناء أدركوا نهاية آمالهم، وغاية أحلامهم، وهذا كله لانقلاب أحوال الدنيا.

والمراد بهذا الكلام التخفيف عن العقلاء، وتسلية الشجعان، والتحذير من الاغترار بالدنيا.

وقد كثر في القرآن الكريم التحذير من الدنيا، والنهي عن الاغترار بها، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[فاطر:٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

وأخبر أنها جميلة في نفوس الكفار: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة:٢١٢]، وما مدحها الله تعالى قط في كتابه.

(٤٠) فاتْـركِ الحيلـةَ فيهـا واتئـدْ إنـما الحيلـةُ في تَـركِ الحيـلْ

«الحيلة»: اسم من الاحتيال، وهو التوصل إلى المحبوب بالطرق الخفية، والأساليب الذكية.

«اتئد»: من الاتئاد، وهو الترفق وترك العجلة.

والمعنى: ترفق في طلب الدنيا، ولا تعجل في تحصيلها، ولا تبالغ في ذلك، فخير الحيلة لطلب راحة النفس والبدن هو ترك الحرص على الدنيا، والتحيل لاصطياد شهواتها، وترك المبالغة في الطلب؛ لأن الأرزاق بيد الله تعالى، يبسطها لمن يشاء، ويضيقها على من يشاء ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢].

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»[(١)].

وجاء في الحديث الشريف، عن جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس: اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلَّ، ودعوا ما حرم» رواه ابن ماجه[(٢)] وصححه الألباني.

وعن أبي حميد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أجملوا في طلب الدنيا، فإن كلاً ميسر لما خلق له» رواه ابن ماجه في باب الاقتصاد في طلب المعيشة[(٣)]، وصححه الشيخ الألباني.

(١) رواه البخاري برقم ٨٠٨- ومسلم برقم ٥٩٣.
(٢) برقم ٢١٤٤.
(٣) برقم ٢١٤٢.

والحرص يُنقص قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه، وصدق من قال: «الحريص محروم»، و«الحرص قائد الحرمان»[1].

(١) انظر: مجمع الأمثال ١/ ٢١٤.

(٤١) أيُّ كـفٍ لم تنـلْ منها الـمُنى فرماهــا اللهُ منــه بالشَّــللْ

في بعض النسخ: «وأي كف لم تفد مما تفد فبلاها...»

«أي»: شرطية كقوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ [القصص:٢٨].

وتأتي موصولة نحو: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] قاله سيبويه، وخالفه الكوفيون.

وتأتي للدلالة على الكمال كقولهم: «زيد رجل أي رجل»، أي كامل في صفات الرجولة.

«كف»: الكف: الراحة مع الأصابع، سميت بذلك لأن الإنسان يكف بها الأذى عن نفسه.

وهي مؤنثة تقول: كف مخضبة، وقال بعضهم: الكف مذكر، ورده ابن الأنباري[1]، وفي بعض النسخ: «فرماه الله» على التذكير.

«الشلل»: هو عدم حركة العضو؛ لفساد عروقه وأعصابه.

وهذا دعاء من الناظم على البخيل بشلل يده؛ لأن البخل صفة مذمومة شرعاً وعقلاً وعرفاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]، ونهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩].

وما ورد البخل في الكتاب والسنة إلا في سياق الذم، فهو محرم إن كان منعاً للواجب كمنع الزكاة، ومكروه فيما عدا ذلك.

---

(١) انظر: المصباح المنير ٢/ ٥٣٥.

وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ من البخل: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن... ومن الجبن والبخل..»، رواه البخاري[١]، وقال أبو بكر -رضي الله عنه-: «وأي داءٍ أدوأ من البخل» رواه البخاري[٢].

قال بعض الحكماء: لو لم يكن في البخل إلا سوء الظن بالربّ في الخلف لكان عظيماً، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

وقال بعض الفضلاء: «البخل بالموجود من سوء الظن بالمعبود».

وكان أبو حنيفة وجماعة لا يرون شهادة البخيل؛ لأن بخله يحمله على أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يغبن، فمن هذه حالته لا يكون مأموناً[٣].

وقال الحسن البصري: «لم أر أشقى بماله من البخيل؛ لأنه في الدنيا مهتم بجمعه، وفي الآخرة محاسب على منعه... عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء».

وقال الشاعر:

أرى الناس خُلَّانَ الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليلُ

وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمتُ نفسي أن يقال بخيلُ

قال الشعبي: ما أفلح بخيل قط، أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

(١) برقم ٢٧٣٦.
(٢) برقم ٤١٢٢.
(٣) انظر: تبيين الحقائق ٤/ ٢٢٧- حاشية ابن عابدين ٧/ ١٤٧.

(٤٢) لا تقـل أصـلي وفصـلي أَبـداً إنـما أصلُ الفتـى ما قـد حَصَلْ

أصل الشيء: أساسه، وكل ما يستند وجود ذلك الشيء إليه، فالأب أصل الولد.

والفصل في اللغة: القطع والإبانة، والمراد هنا الفرع وهو الولد؛ لأنه ينفصل عن أصله.

وقال الكسائي في قولهم: «لا أصل له ولا فصل»، الأصل: الحسبُ، والفصل: اللسان، وقيل: النسب(١).

وقال ابن الأعرابي: «الأصل هو العقل».

والمعنى: لا تقل يكفيني شرف والدي وولدي وفضلهما، وتترك طلب الكمال، والسعي إلى الشرف بأعمالك الصالحة، وهمتك العالية، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، قال تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢)، أي: من قصر به عمله، لم ينفعه شرف نسبه، فشرف النسب لا يجبر نقص العمل.

وبهذا يعلم العاقل أن شرف الإنسان بفضله لا بأصله، ومكانته بأدبه لا بنسبه، ومن فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه.

بل إن تقصير الولد مع كمال الوالد منقصة، ولذا ترى الناس يعيبون الولد الطالح إذا كان من أصل صالح؛ لأن شرف الأصل يستلزم شرف الفرع

(١) انظر: مقاييس اللغة ١/ ١٠٩– المصباح المنير ١٦.
(٢) رواه مسلم ٢٦٩٩.

وصلاحه، ولذا قال قوم مريم عليها السلام: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم ٢٨]، فاحتجوا بشرف الأبوين وصلاحهما مع خطئهم في التهمة.

قال الشاعر:

كن ابن مَنْ شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسبِ

إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال الآخر:

وما الحسن في وجه الفتى شرفٌ إذا لم يكن في فعله والخلائق

والأدب يجبر نقصان النسب، وأما النسب فلا يجبر نقصان الأدب.

(٤٣) قـد يسـودُ المـرءُ مِن غَـيْرِ أبٍ ... وبُحسـنِ السَّبكِ قد يُنفَى الزَّغلْ

يأتي حرف «قد» لمعانٍ:

١- التحقيق: كقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، وهذا اذا دخلت على الماضي.

أما المضارع، فقد تكون للتحقيق قليلا، كقوله تعالى: ﴿قَـدْ يَعْـلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْـهِ﴾ [النور: ٦٤].

قال الشاعر:

وقـد أغتـدي والطـير في وكناتهـا ... بمنجـرد قيـد الأوابـد هيكل

٢- التوقع، كقولك: «قد يقدم الغائب اليوم»، ونفى جماعة أن تفيد هذا المعنى إذا دخل على الماضي؛ لأن التوقع انتظار الوقوع، والماضي قد وقع.

٣- التقريب والتقليل، نحو: «قد قامت الصلاة»، ونحو: «قد يصدق الكذوب»، وفرق بعض النحاة بين التقليل والتقريب.

٤- التكثير، نحو:

قـد أتـرك القِـرْنَ مصفـراً أناملـه ... كأن أثوابـه مُجّـت بفرصـاد

وحمله بعضهم على التقليل.

و«قد» في بيت ابن الوردي للتكثير في الأولى، وللتحقيق في الثانية.

«يسود»: من السيادة، وهي الشرف والمجد.

«السبك»: هو تخليص الشيء من خبثه ومنه سبك الذهب.

«الزغل»: الخبث والغش، ومنه الزُغَلي، أي الغشاش، ذكره الزبيدي[1].

ويطلق على الشيء المكروه والمطروح.

والمعنى: أن المرء قد يكون شريفاً، وأبوه ليس كذلك، فالشرف قد يحصل للإنسان دون آبائه وأجداده، كما هو كثير في الحياة، وذلك بسبب همة الإنسان وعنايته بنفسه وكمالها، كما أن الذهب والفضة يستخرجان من الأرض مختلطين بالشوائب، ثم تصنع منه سبائك الذهب والفضة التي تخطف الأبصار ببريقها ولمعانها، ولكن ذلك يتوقف على حُسن السبك.

قال الشاعر:

رب طفل برّح البؤس به ... شبّ بين العزّ فيها والخطرْ

ورفيعٍ لم يسوده أب ... من أبو الشمس ومن جدّ القمرْ

ولكن ذلك يتوقف على حسن التربية:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلا

فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسن تربية الزمان بديلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له ... أما تخلت أو أبا مشغولا

---

(١) تاج العروس ٢٩/ ١٢٦.

(٤٤) وكـذا الـوردُ من الشـوك وما ينبـتُ النرجِسُ إلا مـن بَصَـلْ

وفي نسخة: «يطلع النرجس» بضم اللام.

«الورد»: نَوْرُ الشجر، واحده وردة، ولكن غلب على نوع معين له هيئة جميلة.

«النرجس»: معرب، ونونه زائدة، واختلف في ضبطها، فقيل: بفتح النون قياساً على نضرب ونصرف، وقيل: بكسر النون قياساً على إذخر وإثمد.

قال أبو القاسم الغساني في حديقة الأزهار: «النرجس: من جنس البصل، له أصناف وأنواع، وأشهرها اثنان، أصفر وأبيض.. يظهر هذا الزهر في أول الربيع، والورد في آخره، وبهذا المعنى فضل ابن الرومي النرجس على الورد في قوله:

النرجـس اختـار الملاحـة كلهـا ولـه فضائـل جمـة ومحامـدُ

للنرجـس الفضـل المبين فـإن أبى آبٍ وحاد عـن الطريقة حائدُ

فصـل القضيـة أن هـذا قائـدٌ زهـر الربيـع وأن هـذا طـاردُ

شـتان بـين اثنـين هـذا مُوعِـدٌ بتسـلّب الدنيـا وهـذا واعـدُ

أيـن العيـون مـن الخـدود نفاسـةً ورئاسـةً لولا القياس الفاسدُ

وقد ذكره الشعراء كثيراً ومدحوه وشبهوا العيون الفواتر به لانكساره وميله...»[1].

(١) حديقة الأزهار للغساني ١٨٠-١٨١.

قال بعضهم: «إني لاستحي أن أباضع في مجلس فيه النرجس؛ لأنه أشبه شيء بالعيون الناظرة».

قال السيوطي: رؤي أبو نواس في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟.

قال: غفر لي بأربعة أبيات قلتها في النرجس، وهي:

تأملْ في نبات الأرضِ وانظر ... إلى آثار ما صَنَعَ المليكُ

عيونٌ من لُجَينٍ شاخصاتٌ ... بأحداقٍ كما الذَّهبُ السبيكُ

على قُضُبِ الزبرجد شَاهداتٌ ... بأن الله ليس لَهُ شريكُ

وأن محمداً عبدٌ رسولٌ ... إلى الثقلين أرسلَهُ المليكُ

ومعنى بيت اللامية: أن الورد مع جمال لونه، وحُسن شكله، وسلطنته على الأزهار، يطلع من شجر الشوك المؤذي طبعاً.

وكذلك النرجس مع حسن نضارته، وطيب رائحته، يطلع من البصل، وهو مرٌّ الطعم خبيث الرائحة.

فهذه أمثلة قياسية تدل على أن الشرف قد يحصل للإنسان دون آبائه وأجداده، فلا يمنع الإنسان نقصُ أصله عن تحصيل الشرف والسيادة.

وبقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء على أصله أمران:

أحدهما: العسل، فإنه مع صفاء لونه، وحلاوة طعمه، وكونه شفاءً، يخرج من بطون النحل التي هي من جنس الحشرات.

الثاني: الحرير، فإنه مع نعومته ومنافعه، يخرج من دودة ضعيفة، رقيقة الجسم، قبيحة الشكل.

قال الملاح في تخميسه:

إن تكـن ممـن بأصـل كرمـا فمـن النحـل شـفاءٌ علـما

ومـن الـدود حريـر حكـما وكذا الـورد من الشـوك وما

يطلع النرجس إلا من بصلْ

ذكره القناوي -رحمه الله- في شرحه.

(٤٥) مَـعَ أنّي أحْمَـدُ الله عَـلَى نَسَـبي إذ بِـأبي بكـرِ اتصـل

«نسبي»: من النسب وهو القرابة، والجمع أنساب، مثل سبب وأسباب، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١].

يقال: بينهما نسبٌ، أي: قرابة، وهو نسيبه أي: قريبه.

وعرفه الراغب بأنه اشتراك من جهة أحد الأبوين[١].

«أبي بكر»: هو الصِّدِّيق عبد الله بن عثمان، ولقبه عتيق، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفضل الأمة بعد نبيها.

والمعنى: لا تتوهم أيها المخاطب، أن نصيحتي لك بعدم الاعتماد على الأنساب، وشرف الآباء والأجداد، سببها كوني مدخولَ النسب، وخسيس النبعة، ودنس الأعراق، فأنا -بحمد الله تعالى- يتصل نسبي بأبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وهو أفضل الأولين والآخرين بعد الأنبياء والمرسلين، فأنا كريم العنصر، طيب الأعراق، من شجرة طيبة، ودوحة كريمة.

وإخبار الناظم بذلك من باب دفع التهمة عن النصيحة، والتحدث بنعمة الله عليه.

(١) المفردات ٤٩٠.

(٤٦) قِيمةُ الإنسان ما يُحسِنُهُ أكثَرَ الإنسانُ منهُ أو أقلْ

«القيمة»: الثمن الذي يقوم مقام المتاع، وجمعه قيم، مثل سِدرة وسِدَر[١].

«الإنسان»: هو المخلوق المكرم على غيره من المخلوقات، وهو اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع.

أصله: إنسيان على وزن إفعلان، فالهمزة زائدة، وبه قال أهل الكوفة بدليل التصغير على «أُنيسيان»، مأخوذة من النسيان، سمي بذلك؛ لأنه نسي عهد الله إليه.

وقيل: على وزن فعلان، فالهمزة أصلية، وبه قال أهل البصرة، وهو مأخوذ من الأُنس ضد النفور؛ لأنه يأنس بكل ما يألفه، أو يأنس إلى بني جنسه.

وقيل: من الإيناس وهو الإبصار والإحساس؛ لأنه يُرى ويحسّ به خلافا للجن[٢].

«ما يحسنه»: أي ما يتقنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، أي: أتقنه.

والمعنى: أن قَدْر الإنسان ومكانته بحسب ما يتقنه من الصنائع والعلوم وليس بحسب أصله ونسبه، فكلما أكثر الإتقان فيها علت درجته، وارتفعت مكانته، والعكس بالعكس.

وأصل هذا المعنى قول علي -رضي الله عنه-: «الناس أبناء ما يحسنون»[٣].

---

(١) انظر: المصباح المنير ٢/ ٥٢٠.

(٢) انظر: تاج العروس ١٥/ ٤٢٣- المصباح المنير ١/ ٢٦- الإنصاف ٢/ ٨٠٩.

(٣) قواعد التحديث ٣٩.

قال الشاعر:

فافخر بعلمٍ ولا تجهل به أبداً فالناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

وقيمةُ المرءِ ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

وقال الخليل:

لا يكونُ العليُّ مثلَ الدنيِّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمةُ المرء قدر ما يحسن المرء قضاءٌ من الإمام عليّ

وذكر القناوي أن هذا الميزان عند المخلوقات في الدنيا، أما عند الله تعالى فمكانة الناس تتفاوت بحسب التقوى والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وأهل الجنة يقتسمون الدرجات فيها بحسب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢].

(٤٧) اكتُم الأمرينِ فقراً وغنى واكسِبِ الفَلْسَ وحاسبْ من بطلْ

«اكتم»: من الكتم والكتمان، وهو الستر والإخفاء، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر:٢٨]، أي: يستره ويخفيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ﴾ [البقرة:٢٨٣] أي: لا تخفوها، بل أظهروها بأدائها.

«فقراً»: أي حاجة، والفقير: المحتاج، وفرق الأصمعي بين الفقير والمسكين، بأن المسكين أحسن حالاً من الفقير، مع شمول الحاجة لهما.

قال الفيومي: «وهو الوجه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ ﴾ [الكهف: ٧٩]، وكانت تساوي جملة، وقال في حق الفقراء: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة:٢٧٣]»[١].

والغنى: ضد الفقر.

«واكسب»: من الكسب، وهو ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظ.

وفرق بعض العلماء بين الكسب والاكتساب، بأن الأول يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره، والثاني يقال فيما أخذه لنفسه، فكل اكتساب كسب، وليس كل كسب اكتساباً، وذلك نحو: خبز واختبز، وشوى واشتوى[٢].

(١) انظر: أضواء البيان ٥/ ١٩٥- المصباح المنير ١/ ٢٨٣- تاج العروس ١٣/ ٣٣٥.

(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم ١٢٠.

وأطلق الكسب في القرآن على فعل الصالحات والسيئات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١٢٠]، ذكره الراغب في مفرداته[١].

«الفلس»: معدن يتعامل الناس به، يجمع جمع قلة على أفلس، وجمع كثرة على فلوس، ويقال: أفلس الرجل أي صار ذا فلوس بعد أن كان ذا دراهم، فعلى هذا يكون المعنى: قلّ ماله.

ويقال: أفلس، أي: صار إلى حال ليس له فلوس، فعلى هذا يكون المعنى: نفد ماله وذهب، وهذا أشدّ من الأول[٢].

«بطل»: من البطالة -بفتح الباء وكسرها- وهي ترك العمل.

وفسره القناوي بالبطل وهو الشجاع، والظاهر الأول بدليل السياق.

والمعنى: لا تظهر فقرك فيتجرأ عليك السفهاء، ولا تُعلن غناك فيحسدك الناس، ولا تترك العمل والكسب فتذل بالحاجة، وانصح العاطل عن العمل، وحضه على الكسب وترك البطالة.

عاقبة الصبر نجاح وغنى ورداءُ الفقر من نسْج الكسلْ

والفقر نوعان: خاص وعام، فالعام هو: احتياج الخلق إلى الله تعالى، وهذا شامل للمخلوقات كلها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وخاص وهو: قلة المال أو عدمه، وهذا هو المطلوب كتمانه.

(١) المفردات ٤٣٠-٤٣١.

(٢) المصباح المنير ٢/ ٤٨١- تاج العروس ١٦/ ٣٤٤.

والكسب مطلوب كما سبق، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وهذه الآية أصل في الجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة.

وهذه طريقة الأنبياء، فهذا داود عليه السلام كان يصنع الدروع، ويتعيش بثمنها ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾[الأنبياء: ٨٠].

وكان زكريا عليه السلام نجاراً يتقوَّت من وراء الأعمال الخشبية.

وآجر موسى عليه السلام نفسه؛ لشِبع بطنه وعفة فرجه.

وعمل النبي صلى الله عليه وسلم في التجارة ورعي الغنم، وهكذا أصحابه الكرام.

وكان عمر -رضي الله عنه- يبغض الرجل العاطل، ويقول: يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم، واتّجروا، ولا تكونوا عيالاً على الناس[1].

إن الكسالة أبو الفقر، والبطالة أم الخسران، وما يحصل برْدُ العيش إلا بحرّ التعب، ولا طعمُ العزّ إلا تحت ثوب الكدّ والعمل.

---

(١) انظر: حلية الأولياء ٧/ ٧١.

(٤٨) وادَّرع جِداً وكَداً واجتنبْ صُحبةَ الحَمْقَى وأربابَ الخَللْ

«وادَّرع جدا»: أي اجعل الجدّ درعاً لك، والدرع مؤنثة وقد تذكر، وهي قميص من حديد يلبسه المقاتل، ويقال لها: الزردية، ودرع المرأة: قميصها.

والجد: هو الاجتهاد في الأمر، وضده الكسل، كما يطلق على ضد الهزل، ومنه الحديث: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والعتاق»[1].

وذلك أن الرجل في الجاهلية كان يطلق أو ينكح أو يعتق، ثم يقول: «كنت لاعباً ويرجع»، فأبطلها النبي صلى الله عليه وسلم.

والكد: -بفتح الكاف- الكدح والسعي، وضده الكسل والبطالة.

«الحمقى»: جمع أحمق، والأنثى حمقاء، والاسم منه الحماقة وهي البلاهة وضعف العقل، ومن علامتها قلة الإصابة، ووضع الشيء في غير موضعه.

«أرباب»: أي أصحاب.

«الخلل»: على وزن جبل، يطلق على الفرجة بين الشيئين، وعلى الاضطراب وعدم الانتظام، والمراد الثاني.

وفي بعض النسخ: «أرباب البَخَل»، وهو لغة في البخل.

والمعنى: اجعل السعي والاجتهاد في كسب الرزق، وتحصيل المعاش، كالدرع التي تدفع عنك المذلة والحاجة إلى الناس.

واجتنب صحبة الحمقى والمغفلين والبخلاء وأهل الفساد؛ لأن ذلك يضر بأخلاقك، وينقص من قدرك، فالطباع سراقة، ومتأثرة بالجلساء، ألا ترى

(١) رواه أبو داود برقم ٢١٩٤- والترمذي برقم ١١٨٤ وقال: حديث حسن غريب.

الإنسان بمعاشرة العلماء يصير كاملاً، وبمعاشرة الفسقة والجهلة يصير ناقصاً.

قال الشاعر:

عن المرء لا تسلْ وسلْ عن قرينه فكلُّ قرين بالمقارن يقتدي

فعاشر أولي التقوى تنل من تقاهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وقال الآخر:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدّرا

وإياك أن ترضى بصحبة ناقص فتنحط قدراً من عُلاك وتحقرا

وقال الآخر:

من عاشر الأشراف صار مشرّفاً ومُعاشِرُ الأنذال غيرُ مُشَرّفِ

فانظر إلى الجلد الحقير مُقبَّلاً بالثغر لما صار جلدَ المصحفِ

وفي البيت تحذير من صحبة الحمقى، كما قيل: الحمق داء، دواؤه الموت.

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقةَ أعيتْ من يداويها

ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: أعياني دواء الأحمق، وما أعياني دواء الأكمه والأبرص.

وقال الأصمعي: «قلت لغلام من العرب: أيسُرُّك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنك أحمق؟، فقال: لا والله، قلت: ولم؟، قال: أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي، ويبقى حمقي»!![1].

(١) انظر: الأذكياء لابن الجوزي ٢٠٣- أخبار الظراف ١٥٧.

وقال الأحنف: «إني لأجالس الأحمق ساعة، فأجد ذلك في عقلي».

وقال سالم بن قتيبة: «لا تطلب حاجتك من أحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، سكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه، وموته خير من حياته».

قال صالح عبد القدوس:

اتق الأحمقَ أن تصحَبه إنما الأحمق كالثوب الخَلِقْ

كلما رمَّمَت منه جانباً حركته الريحُ وهناً فانخرقْ

وإذا عاتبته كي يرعوي زاد جهلاً وتمادى في الحُمُقْ

وإذا جالسته في مجلس أفسد المجلس منه بالخرقْ

كحمار السوء إن أطعمتَهُ رمحَ الناسَ وإن جاع نهقْ

(٤٩) بَـيْن تبذيـرٍ وبُخـل رُتبـةٌ فـكلا هذيـنِ إن زاد قتـلْ

«تبذير»: هو إضاعة المال، وصرفه في غير وجهته، وأصله: إلقاء البذر وتفريقه، فاستعير لتضييع المال؛ لأن تبذير البذر تضييع في الظاهر، بغض النظر عن المآل[١].

والإسراف: تجاوز الحد المحمود في كل شيء، لكنه في الإنفاق أشهر، ولذا قيل: الإسراف يتعلق بالكمية، والتبذير يتعلق بالكيفية[٢].

«وبخل»: البخل ضد الجود، يقال: رجل باخل وبخيل، والثاني يفيد الكثرة.

«إن زاد»: وفي نسخة: «إن دام».

والمعنى: كن وسطاً بين التبذير والبخل، فلا تبالغ في الإنفاق فتقع في التبذير والإسراف، ولا تبالغ في الإمساك فتقع في البخل، فكل من هذين إن زاد عن حده أهلك صاحبه.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧][٣].

وقال بعض الصحابة: «إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام الكثيرة

(١) انظر: المفردات ٤٠.

(٢) روح المعاني ١٥/ ٦٣.

(٣) وقاعدة الاقتصاد وضابطه هو: أن يكون صرفك أقل من دخلك، وهذا داخل في مفهوم الوسطية.

في يوم واحد»[١].

وقيل: التدبير ينمي القليل، والتبذير يمحق الكثير.

وهذا في المباحات، أما في الصدقات والخيرات فكلما أكثر الإنسان من النفقة فيها كان خيراً له، ما لم يضيع حقوق الناس.

قال مجاهد: لو كان أبو قبيس لرجلٍ ذهباً ثم أنفقه في طاعة الله تعالى لم يكن إسرافاً، ولو أنفق رجل درهماً واحداً في معصية الله كان إسرافاً[٢].

وقيل للحسن بن سهل -وكان كثير العطاء-: «لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير».

(١) البخلاء للجاحظ ٤٤.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٢/ ١٣٦- التفسير الكبير ١٣/ ١٧٦.

(٥٠) لا تَخُض في سبِّ ساداتٍ مضَوْا إنهـمْ ليسـوا بأهـلٍ للزَّلـلْ

«لا تخض»: من الخوض في الأمر، وهو الدخول فيه، يقال: خاض في الباطل أي دخل فيه، وأكثر ما ورد في القرآن فيما يذم الدخول فيه، كقوله: ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١].

«سب»: السب هو الشتم، ومنه قيل للإصبع التي تلي الإبهام: سبابة؛ لأنه يشار بها عند السب.

«سادات»: جمع سيد، وهو رئيس القوم وشريفهم.

والمعنى: لا تُدخل نفسك، ولا تورطها بالوقوع في شتم سادات المسلمين وهم الصحابة والتابعون، والعلماء والصالحون؛ لأنهم ورثة الأنبياء، والمبلغون للدين، والناقلون للشريعة، فالطعن فيهم طعن في المنقول، وهم مجتهدون في أعمالهم، قاصدون للحق، مأجورون على ذلك، فالواجب حسن الظن بهم[١].

وحمل كلامهم على الصواب ما أمكن ذلك دون تكلف وتمحل، فإنهم ليسوا محلاً للهوى، ولا يستحقون السباب واللعن لحسن نواياهم، وجميل صفاتهم، وكثرة إحسانهم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠]، وفي الحديث: «سباب المسلم فسوق»[٢].

---

(١) كما قال ابن عاصم:

وواجب في مشكلات العلمِ تحسيننا الظنَّ بأهل العلم.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٨- ومسلم برقم ٦٤.

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[1].

(١) صحيح البخاري برقم ١٣٢٩.

(٥١) وتَغَافَلْ عن أمورٍ إنهُ لم يفُز بالحمدِ إلا من غَفَلْ

«التغافل»: هو التظاهر بالغفلة، وهي غيبة الشيء عن بال الإنسان، وقد استعمل فيمن تركه إهمالاً وإعراضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١][1].

والمعنى: أظهر من نفسك الغفلة عن أمور الناس غير المحمودة، فإنه لا يظفر بالثناء إلا من ترك أمور الناس، وأعرض عن عيوبهم، واجتهد في سترها وإصلاحها.

والأصل في هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2][3].

ويؤيد هذا المعنى تحريم الغيبة، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن التجسس، وتتبع عيوب الناس كما في الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا...» متفق عليه[4].

وعن معاوية -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم» رواه أبو

---

(١) وباب «التفاعل» يأتي في الغالب لإظهار صفة ليست موجودة، كالتجاهل لإظهار الجهل، والتواجد لاستدعاء الوجد تكلفاً. انظر: قصد السبيل للمحبي ١ / ٣٤٩.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٣١٧.

(٣) وفي صحيح مسلم «أن رهطاً من اليهود استأذنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: «السام عليكم»، ففطنت بهم عائشة فسبتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَهْ يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قال النووي: «وفي هذا الحديث استحباب تغافل أهل الفضل عن سفه المبطلين إذا لم يترتب عليه مفسدة». شرح مسلم ١٣ / ٣٢٣، نيل الأوطار ٧/ ٧٧.

(٤) رواه البخاري برقم ٤٨٤٩- ومسلم برقم ٢٥٦٣.

داود[١] وصححه النووي[٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه أتى برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به رواه أبو داود[٣]، وقال النووي: «بإسناد على شرط البخاري ومسلم»[٤].

وهذا هو التغافل المحمود شرعاً، أعني الأخذ بظواهر الناس ومداراتهم، وترك التجسس والظنون السيئة، والتفتيش عن عورات الناس وأسرارهم، وهو دليل العقل عند الأدباء، كما قال أبو تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه لكنّ سيد قومه المتغابي

وكما قيل: «إن جئت أرضاً أهلها كلهم عُور، فغمض عينك الواحدة».

وقال حسين الجزري:

ورب غبي كنتُ أحسنُ ودّه وتقبحُ لي أقواله والفعائلُ

تغافلت عن أشياء منه وربما يسرك في بعض الأمور التغافلُ

قال بعض الحكماء: «الكرم مكيالٌ ثلثاه التغابي».

وقد مدحت امرأة زوجها فقالت: «زوجي إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يسأل عما عَهد...»، فمدحته بالتغافل والشجاعة والقناعة[٥].

(١) برقم ٤٨٨٨.
(٢) رياض الصالحين ٢٩٠.
(٣) برقم ٤٨٩٠.
(٤) رياض الصالحين ٢٩٠.
(٥) انظر: بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ٧٢-٧٩.

قال الشاعر:

كريـم يُغَـضّ الطـرف دون حيائه ويدنـو وأطـراف الرمـاح دوائر

وقال الشافعي -رحمه الله-: «اللبيب العاقل هو الفطِن المتغافل»[(١)].

(١) حلية الأولياء ٩ / ١٢٣.

(٥٢) ليسَ يخلوُ المرءُ من ضِدٍ وَلَو حَاولَ العُزلةَ في رأسِ جَبلْ

ضد الشيء لغة: نقيضه وخلافه، وقد يطلق على النظير والمثيل.

والضدان في الاصطلاح: هما اللذان لا يجتمعان، وقد يرتفعان كالسواد والبياض، والنقيضان هما: اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان كالوجود والعدم، والليل والنهار.

«العزلة»: هي ترك مخالطة الناس بالخلوة والانقطاع.

والمعنى: أن الإنسان لا يسلم من شخصٍ مخالف معاند، ولو حاول الابتعاد عن الناس، والانقطاع في قمم الجبال، كما قيل في الأمثال: «لا تعدم الحسناء ذاماً»، كما قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخُصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لدميمُ

فالظلم والإيذاء من طبائع الناس، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ[١]

والعلة المانعة من الظلم: دين حاجز، أو عقل مانع، أو سلطان قاهر، أو عجز ظاهر.

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/ ١٦٦.

وقال الآخر:

والظلم طبعٌ ولولا الشر ما حُمدت   في صنعـة البيض لا هندٌ ولا يمنُ

والأنبياء رغم كريم صفاتهم، وكمال أخلاقهم، لم يسلموا من العداوة والإيذاء ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان:٣١].

قال أبو الدرداء: «الناس إن قارضتهم قارضوك، وإن تركتهم لم يتركوك»(١).

وعلاجه: الصبر والتسلي بالفضلاء الماضين، كما قال صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(٢).

قال البوصيري:

فتسلوا بمن مضى إذا ظُلمتم   فالتسـلي للنفـس فيـه عـزاء

ولو لم يكن للإنسان عدو إلا إبليس لكان كافياً، قاله القناوي -رحمه الله-.

وقال عروة بن الورد:

وقد عيروني المال حين جمعته   وقد عيروني الفقر إذ أنا مقترُ

وعيرني قومي شبابي ولـــمَّتي   متى ما يشا رهط امرئٍ يتعيَّرُ

وهذا يوسف عليه السلام كاده إخوته، وآذوه حسداً وبغياً، ولكن الله تعالى جعل العاقبة له، وأورثه عز الدنيا والآخرة.

وهذه عائشة -رضي الله عنها- الطاهرة المطهرة، التي طعن المنافقون في عرضها ودينها بقصة الإفك التي نسجوها، ولكن الله تعالى عوَّضها بجعل

(١) انظر: غريب الحديث لابن سلام ٤/ ١٥١- تهذيب اللغة ٢٦٧.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٢٢٤.

براءتها قرآناً يتلى في محاريب المسلمين إلى يوم القيامة.

فالعاقل لا يمتنع عن فعل الخير خشية كلام الناس.

من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور

(٥٣) غِبْ عن النمام واهجُرهُ فما بلغ المكروه إلا من نقلْ

وفي نسخة: «مل عن النمام»، أي: اتركه وأعرض عنه.

«النمام»: فاعل النميمة وهي السعاية والوشاية، ونقل الحديث على وجه الإفساد والفتنة، وأصل النميمة: الهمس والحركة الخفيفة، ولهذا يطلق على النمام أنه نمل وذو نملة، تشبيهاً لحركته بحركة النملة من جهة الخفاء[1].

وذهب الغزالي إلى أن النميمة أعم من ذلك، وأنها كشف ما يكره كشفه، سواء أكان عيباً أم لا، فحقيقتها كشف الستر عما يكره كشفه، ثم ذكر أن النميمة إذا كانت إلى من يُخَاف جانبه سميت سعاية[2].

والمعنى: أعرض عن النمام ولا تصحبه؛ لأنه[3] إذا نقل إليك حديثاً مكروهاً، فسينقل حديثك إلى غيرك، كما قال الحسن البصري -رحمه الله-: «من نمّ إليك نمّ عليك».

وفي الأمثال: «مبلغ السوء كباغيه»، «ما غاظك إلا من بلغك»، «المبلغ أحد الشاتمين» .

قال الزهيري:

يا من إليّ قد وشى بنقل سوء ولغا
مذمتي سمعتها من الذي قد بلّغا

---

(١) انظر: تاج العروس ٣١/ ٣٧.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٦.
(٣) الذي آذاك في الحقيقة.

والنميمة من كبائر الذنوب لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة نمام» متفق عليه[1].

وقد وصف الله تعالى الوليد بن المغيرة بعشرة أوصاف مذمومة، منها النميمة فقال: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم:١١].

قال ابن قتيبة: «لا نعلم أن الله عز وجل وصف أحداً بالذم مثل ما وصف الوليد بن المغيرة».

وروى حماد بن سلمة أن رجلاً باع غلاماً، فقال للمشتري: ليس فيه عيب إلا النميمة، فاستخف المشتري بهذا العيب واشتراه، فمكث الغلام عنده أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن زوجك لا يحبك، وهو يريد التسري، أفتريدين أن يعطف عليك، قالت: نعم، فقال لها: خذي الموس، واحلقي شعرات من باطن لحيته إذا نام.

ثم جاء الغلام إلى الزوج فقال له: إن امرأتك اتخذت خليلاً وهي قاتلتك، أتريد أن يتبين لك هذا ؟ قال: نعم، قال: فتناوم لها.

ففعل الرجل، فجاءت المرأة بالموسى لتحلق الشعر، فظن الزوج أنها تريد قتله، فأخذ منها الموس فقتلها به، فجاء أولياؤها فقتلوه، ثم جاء أولياء الرجل، فوقع القتال بين الفريقين!!.

وذكر الغزالي أن من حملت إليه النميمة تجب عليه ستة أشياء:

الأول: عدم التصديق؛ لأنه فاسق مردود الشهادة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾ [الحجرات:٦].

---

(١) رواه مسلم برقم ١٠٥ – ورواه البخاري بلفظ «قتات» بدل نمام، برقم ٥٧٠٩.

الثاني: نهيه عن النميمة، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان:١٧].

الثالث: بغضه في الله تعالى.

الرابع: ترك الظن السيئ بالمنقول عنه، لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢].

الخامس: ترك البحث والتجسس، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢].

السادس: ترك حكاية النميمة المنقولة، حتى لا تقع فيما نهيت عنه[1].

ومن المواقف الطريفة: أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات:٦]، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، وإن شئت عفونا عنك ؟.

فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

وسدّ الرسول صلى الله عليه وسلم باب النميمة والسعاية؛ حرصاً على سلامة الصدر فقال: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إلى الناس وأنا سليم الصدر»[2].

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين، فقال: «ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم».

وقال مصعب بن الزبير: «قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة،

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٦.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤٨٦٠- والترمذي برقم ٣٨٩٦.

والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه».

وقال الصاحب بن عباد: «السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة» .

(٥٤) دَارِ جارَ الدارِ إن جَار وإنْ لم تجِدْ صَبْراً فما أَحلى النُّقَلْ

وفي نسخة: «جار السوء».

«دارِ»: من المداراة، وأصله: المدارأة بالهمز؛ لأنه بمعنى المدافعة برفق، وهي الملاطفة للإصلاح ودفع الشر، فإن كانت مع السكوت على المنكر والإقرار للباطل، فهي مداهنة محرمة، كما سيأتي.

«صبراً»: الصبر: هو حبس النفس عن الجزع والضجر.

«النقل»: جمع نُقلة، وهي التحول من مكان إلى آخر.

والمعنى: لاطف الجار، وليّن الكلام معه، وإن ظلمك وآذاك، واصبر على إساءته، وقبيح أخلاقه، فإن ضاق بك الأمر، وعجزت عن الصبر، فعليك بالانتقال، وتغيير المسكن، ففيه راحة البال، وسكون النفس.

قال ابن الوردي:

إذا كرهت منزلاً فدونك التحولا

وإن جَفَاك صاحبٌ فكنْ به مستبدلا

فمن أتى فمرحبا ومن تولى فإلى

وتخصيص الجار بالمداراة لمكانته ومنزلته، وليس لحصرها فيه، وقصرها عليه، فالمداراة شاملة لكل أحد، وفيها سلامة الدين والدنيا، وهي دليل على عقل الإنسان، وحسن خلقه، وسعة صدره.

والأصل في فضل المدارة قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]

أي: ادفع شره وأذاه بأحسن الأخلاق وأبلغ الطرق.

وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف:١٩٩].

وبوب البخاري -رحمه الله- في صحيحه: «باب المدارة مع الناس»، وذكر فيه حديثين.

منهما: حديث عائشة -رضي الله عنها-: «أن رجلاً استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ائذنوا له فبئس ابن العشيرة -أو بئس أخو العشيرة-، فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول؟!، فقال: أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه -أو ودعه الناس اتقاء فحشه»[(١)].

ومن أحق الناس بالمداراة الزوجة كما روى ابن حبان في صحيحه عن سمرة: «فدارها تعش بها»[(٢)].

قال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل،

(١) صحيح البخاري برقم ٥٧٨٠.

(٢) صحيح ابن حبان برقم ٤١٧٨ - ورواه الحاكم برقم ٧٣٣٣ وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[١].

وقال الخطابي:

ما دمت حيًا فدار الناس كلهم ... فإنما أنت في دار المداراة

والصبر على أذى الجار من أخلاق المؤمن، وهو غاية الإكرام الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[٢]، قال الحسن البصري -رحمه الله-: «ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار الصبر على أذى الجار».

وأحق الجيران بالمراعاة والإكرام هم الملائكة الذين لا يفارقون الإنسان إلا في حالات معينة، فهم يكتبون الحسنات والسيئات، ويحفظون الإنسان بأمر الله تعالى.

وإكرامهم يكون بالحياء منهم، والبعد عن المعاصي، وكل ما فيه إيذاء لهم، ذكره القناوي -رحمه الله-.

(١) فتح الباري ١٠ / ٥٢٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٦٧٣- ومسلم برقم ٤٧.

(٥٥) جَانِبِ السُّلطَانَ واحذر بَطشَهُ لا تُخَاصِم من إذا قَالَ فَعَلْ

«السلطان»: في اللغة هو الحجة والبرهان والولاية.

والمراد به في البيت: صاحب الولاية العامة.

قال القناوي: ويلحق به كل من له قوة وشوكة.

وأصله من «السلاطة» وهي التمكن من القهر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر:٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٩٠].

«بطشه»: البطش هو: الأخذ بعنف، والتناول للشيء بصولة وقهر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠]، وقال: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان:١٦].

«لا تخاصم»: من المخاصمة وهي: المنازعة، وأصل المخاصمة: أن يتعلق كل واحد بِخُصْمِ الآخر، أي: جانبه.

والمعنى: تباعد عن السلطان واحذر جبروته، ولا تظهر له العناد والمخاصمة؛ لأنه قادر على فعل تهديده، وتنفيذ ظلمه.

وهذا ليس دعوة إلى الخوف والهلع، ولكنه دعوة إلى الحذر والبعد عن مواطن الفتن قال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

والتعقل في التعامل مع السلطة، وألا تكون العلاقة قائمة على الصراع والمواجهة، ولكن على التفاهم والتعاون على الحق والتناصح، كما جاء في الحديث:

«الدين النصيحة..»(١) فليس أحد فوق النصيحة، ولكنها النصيحة اللينة ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

قال حذيفة -رضي الله عنه-: «إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما مواقف الفتن؟، قال: أبواب الأمراء»(٢).

وقال ميمون بن مهران: «إن في صحبة السلطان خطرين، إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، والسلامة ألا يعرفك».

وقال الفضيل بن عياض: «اجتنبوا أبواب الملوك، فإنكم لا تصيبون من دنياهم شيئاً، إلا أصابوا من آخرتكم ما هو أفضل منه».

وقال بعضهم: ليكن السلطان عندك كالنار، لا تدنُ منها إلا عند الحاجة فإذا اقتبست منها فعلى حذر.

وقال ابن المعتز: أشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً.

وقال ابن عباد:

فما السلطان إلا البحر عظما وقُرب البحر محذور العواقب

وقال أبو الفتح البستي:

صاحب السلطان لا بد له من هموم تعتريه وغُمم

والذي يركب بحراً سيرى قُحم الأهوال من بعد قحم

---

(١) رواه مسلم برقم ٥٥.

(٢) انظر: مصنف ابن أبي شيبة برقم ٣٧٧٣٣- حلية الأولياء ١/ ٣٧٧.

وقال الشاعر[1]:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أبوابهم ظلُّ

ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً إن الوقوف على أبوابهم ذلُّ

ومقصود السلف من النهي عن الدخول على السلاطين، الحفاظ على دين العالم من النفاق والمداهنة والإقرار على المنكر.

فإن أمن العالم من ذلك، ودخل عليه قائماً بالحق، وآمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، وداعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو مأجور على ذلك، وما أعز ذلك!!.

(١) اختلف في نسبة الأبيات فقيل للشافعي وقيل لأبي القاسم الدمشقي وقيل لأبي العتاهية وقيل لمحمد بن حبيب وقيل: الحدادي.
انظر: شعب الإيمان ٧/ ٥٤- العزلة ٩٥- جمهرة الأمثال ١/ ٣٠١.

(٥٦) لا تلِ الحكم وإن هم سألوا رغبةً فيكَ وخالِف من عَذَلْ

«الحكم»: هو القضاء والإمارة، والمراد هنا الأول، ويدخل فيه -تبعاً- كل الولايات كما أشار بعد ذلك بقوله: «فالولايات وإن طابت...».

«عذل»: من العذل وهو اللوم والعتاب.

والمعنى: لا تكن قاضياً وحاكماً بين الناس، وإن طلبوا منك ذلك رغبة فيك، وخالف من لامك على تركها، وعاتبك على الإعراض عنها، وذلك لخطر القضاء، وكونه سبباً لعداوة الناس.

جاء في الحديث الشريف: «القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار، فالأول: رجل عرف الحق فحكم به، والثاني: رجل عرف الحق فلم يحكم به، والثالث: رجل لم يعرف الحق، وحكم على جهل فهو في النار» رواه أهل السنن من حديث بريدة -رضي الله عنه-، وصححه الحاكم وغيره، وقد جمع الحافظ ابن حجر طرقه في جزء مفرد[١].

قال ابن تيمية: «والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين، وحكم بينهما، سواء كان خليفة أو سلطاناً أو نائباً أو والياً، أو كان منصوباً ليقضي بالشرع أو نائباً له، حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا، هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر»[٢].

---

(١) رواه أبو داود برقم ٣٥٧٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٤٧.

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين» رواه أبو داود[١] والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد، وحسّنه السخاوي، **والذبح بغير سكين كناية** عن هلاك الدين، وشدة الألم.

ولهذا امتنع عنه كثير من العلماء كأبي حنيفة ومالك[٢].

ومحل هذا إذا وجد غيره ممن يكون أهلاً للقضاء، أما إذا لم يوجد غيره، وكان أهلاً للقضاء فهو واجب عليه؛ لأن القضاء من فروض الكفايات، التي لا تستقيم أمور الناس إلا به.

---

(١) برقم ٣٥٧١- ورواه الترمذي برقم ١٣٢٥.

(٢) قال مكحول: «لو خيرت بين القضاء والقتل اخترت القتل».

قال الشاعر:

فيا ليتني لم أكن قاضياً ويا ليتها كانت القاضية

مغني المحتاج ٤ / ٣٧٣.

(٥٧) إنَّ نصفَ الناسِ أعداءُ لمنْ ولي الأحكامَ هذا إن عَدَلْ

«النصف»: -بكسر النون وضمّها-، والكسر أفصح، ويقال: النصيف أيضاً.

ونصف الشيء: شطره، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ [النساء:١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٢].

«والعدل»: المساواة والقصد في الأمور، وضده الجور.

قال القناوي: «وهو مأخوذ من الاعتدال، وهو الاستواء، وحقيقة العدل: وضع الأمور في موضعها، فلا توضع الشدة مكان اللين، ولا اللين مكان الشدة».

والمعنى: لا تل الأحكام، والقضاء بين الناس؛ لأن نصفهم أعداء لمن ولي القضاء وعدل فيه.

ووجه ذلك: أن الناس ظالم ومظلوم، فإن حكمت بالعدل أبغضك الظالمون، وإن حكمت بالجور أبغضك المظلومون.

والعدل في الحكم به صلاح الدين والدنيا، والجور فيه هو فساد الدين والدنيا.

وقالت الحكماء: الملك يبقى على الكفر والعدل، ولا يبقى على الجور والإسلام.

وقد أوجب الإسلام العدل على الإنسان في كل معاملاته، حتى مع الأعداء ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

وقال عمر لأبي مريم السلولي -قاتل زيد-: «والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم فقال أبو مريم: أيمنعني ذلك حقا ؟ قال: لا، قال: فلا ضير إنما يأسى على الحب النساء»[١].

عليك بالعدل إن وليت مملكة واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالملك يبقى على عدل الكفور ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

وقال بعض الفضلاء: «عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان».

وقيل: ملك عادل خير من مطر وابل، وبئس الزاد إلى المعاد ظلم العباد.

يا أيها الملك الذي بصلاحه صلح الجميعُ

أنت الزمان فإن عدلت فكله أبداً ربيعُ

وأهم ما في السلطان عدله وإحسانه:

لكل ولاية لا بدّ عزل وصرف الدهر عقد ثم حَلُّ

وأحسن سيرة تبقى لوالٍ على الأيام إحسان وعدلُ

(١) انظر: أخبار القضاة ١/ ٢٧١.

(٥٨) فهـو كالمحبـوسِ عـن لَذاتـه وَكلا كَفّيـهِ في الحـشر تُغـلْ

«المحبوس»: من الحـبس، وهو المنـع من الانبعـاث، كمـا قـال عـزّ وجل: ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة:١٠٦]، ومنه سمي السجن حبساً.

«لذاته»: أي شهواته.

«كفيه»: مثنى كف، وهي الراحة مع الأصابع، كما سبق.

«الحشر»: هو يوم القيامة.

«تُغل»: أي تجمع إلى عنقه بطوق من حديد، والغُلّ -بضم الغين- طوق من الحديد يجعل في العنق، وجمعه أغلال، قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ ﴾ [غافر:٧١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا ﴾ [يس:٨]، ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩].

والمعنى: أن الحاكم كالشخص المحبوس عن لذاته، لا يستطيع الخروج كل وقت، وإلى كل مكان، لحاجته إلى الحاشية في خروجه، وخوفه من العامة، ثم أخبر أن يديه تُغل في عنقه بالحديد يوم القيامة، ويقال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة:٣٠-٣١].

وهذا محمول على الحاكم الظالم، الذي آذى الأبرياء، وأخذ الأموال، وأراق الدماء ظلما وتكبراً.

أما العادل فإنه من الصفوة الذين يكرمون يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»[١]، فبدأ به لعظم أثره في الناس.

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٤٢١.

(٥٩) إنما النقصُ والاستثقالُ في لفظةِ «القاضي» لوعْظٌ ومَثَلْ

وفي بعض النسخ: «إن للنقص... لوعظاً»، ويكون الوقف بالسكون على «مثل» على لغة ربيعة الذين يقفون على المنصوب بالسكون[١].

ولفظ (القاضي) و(الوالي) من الأسماء المنقوصة عند النحاة، أي التي يقدر فيهما الضمة والكسرة حال الرفع والجر، والمانع من ظهورهما الثقل.

والمعنى: أن النقص والاستثقال المتضمن لهما لفظ «القاضي» وكذلك «الوالي» فيهما عظة كافية، ومَثَل نافع؛ لانصراف الإنسان عن الدخول فيهما.

وكلام الناظم محمول على من لم يتعين في حقه الحكم والقضاء، أو من ليس فيه الأهلية؛ لأنه يعرض نفسه لظلم العباد، وسخط المعبود.

أما من كان أهلاً للقضاء لعلمه وتقواه، فلا حرج عليه في تولي الحكم والقضاء، وإن كان الأفضل له عند جمهور العلماء عدم الدخول فيه، لما فيه الخطر والغرر، ولما ورد فيه من التشديد[٢]، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة:٤٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص:٢٦].

وقال البخاري في صحيحه: «باب أجر من قضى بالحكمة»، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله

---

(١) انظر: خزانة الأدب للبغدادي ٤ / ٤٣٩ - ١٠ / ٤٧٨.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣ / ١٢١.

حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[١].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث الترغيب في ولاية القضاء لمن استجمع شروطه وقوي على أعمال الحق، ووجد له أعواناً، لما فيه من الأمر بالمعروف، ونصر المظلوم، وأداء الحقوق المستحقة، وكف يد الظالم، والإصلاح بين الناس، وكل ذلك من القربات، ولذلك تولاه الأنبياء ومن بعدهم الخلفاء من الخلفاء الراشدين»[٢].

قال الشاعر:

نعم الوظيفة القضا لأهله وظيفة الأشراف والأفاضل

فاحفظ لها حقوقها واعمل بها ولا تكن عن حفظها بذاهل

وقال الآخر عن مرتبة القضاء:

مرتبة الرسول طه المصطفى أكرم بها بين الأنام مرتبة

قال ابن تيمية: «والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين، وحكم بينهما، سواء كان خليفة أو سلطاناً أو نائباً أو والياً، أو كان منصوباً ليقضي بالشرع أو نائباً له، حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا، هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر»[٣].

(١) صحيح البخاري برقم ٦٧٢٢.
(٢) فتح الباري ١٣ / ١٢١.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٢٤٧.

(٦٠) لا تُوازي لذةُ الحكم بما ذَاقَهُ المرءُ، إذا المرءُ انعَزَلْ

وفي بعض النسخ:

لا تساوي لذة الحكم بما ذاقه الشخص إذا الشخص انعزلْ

«لا توازي»: أي لا تساوي.

«انعزل»: أي تنحى عنه، يقال: عزلت النائب، إذا أخرجته عما كان له من الحكم والولاية.

والمعنى: أن لذة تولّي الحكم لا تساوي مرارة العزل، بل العزل أشد على النفس، وأثقل على القلب.

وفي الأمثال: (العزل طلاق الرجال، وحيض العمال).

وقالوا العزلُ للعمال حيض لحاه الله من حيض بغيضِ

فإن يك هكذا فأبو علي[1] من اللائي يئسن من المحيضِ

وقال منصور الفقيه:

يا من تولى فأبدى لنا الجفا وتبدلْ

أليس منك سمعنا من لم يمت فسيعزلْ

وقالوا:

«من تاه في ولايته ذلّ في عزله»

«ذل العزل يضحك من تيه الولاية»

---

(١) هو الوزير أبو علي بن مقلة، كان وزيرا لأربع من الخلفاء.

«الولاية وكل مدح، والعزل وكلّ ذم»

فالولاية أولها لذة وآخرها ألم، كما جاء في الحديث: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة، وبئس الفاطمة»[1].

(١) رواه البخاري برقم ٦٧٢٩.

(٦١) فَالولاياتُ وإن طَابت لمن ذَاقَها فَالسمُّ في ذاكَ العَسَلْ

«الولايات»: جمع ولاية -بكسر الواو- وهي تولي الأمر، وبفتح الواو: بمعنى النصرة، وقيل: هما مترادفان بمعنى النصرة.

«طابت»: أي انشرحت لها النفوس، وانبسطت لها.

«ذاقها»: من الذوق، وهو إدراك الطعم عن طريق الفم.

وأصله فيما يقل تناوله، أما ما يكثر تناوله فيقال له: الأكل.

وكثر استعماله في العذاب، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ [الصافات:٣٨]، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢]، فهو استعارة يراد بها الإشارة إلى ملازمة الجوع والخوف لأهل مكة، وشدة إحاطتهما بهم، كما يلازم اللباس صاحبه ويحيط به.

«فالسم»: ما يقتل بتناوله، والسين مثلثة، الفتح هو الأكثر، والضم لغة لأهل العالية، والكسر لغة لبني تميم.

«العسل»: مجاج النحل ولعابه، يذكر ويؤنث، ومن التأنيث قول الشاعر:

بها عسل طابت يدا من يَشورُها

والمعنى: أن المناصب وتولي الأحكام، وإن استلذتها النفوس، وانبسطت لها، ومالت إليها لما فيها من حلاوة الأمر والنهي، إلا أنها كالعسل الذي فيه سم قاتل وهو الظلم والكبر.

وانظر إلى مصير من تولى الولايات، وقاد الوزارات، فلم يكن بعد ذلك إلا القتل، والولوغ في الفتن، كما ترى ذلك جلياً في صراع بني أمية وبني العباس.

وقد نهى الشارع الحكيم عن طلب الولاية، والحرص عليها، كما قال صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها» رواه البخاري[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئس الفاطمة» رواه البخاري[٢].

وجاء في صحيح مسلم ما يوضح هذا المعنى، فقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر -رضي الله عنه-: «إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[٣].

وفي الحديث: «أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل» رواه البزار والطبراني، وصححه الحافظ ابن حجر[٤].

قال المهلب: «الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها، حتى سفكت الدماء، واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض، ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت، فيندم على الدخول فيها؛ لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته»[٥].

قلت: ويستثنى من عموم المنع: القويُّ إذا كان في توليه صلاح الأمة، ودرء المفاسد عنها، فلا حرج في طلبه الولاية[٦]، وعليه حمل قوله تعالى في حق يوسف

---

(١) برقم ٦٧٢٨.
(٢) برقم ٦٧٢٩.
(٣) صحيح مسلم ١٨٢٥.
(٤) فتح الباري ١٣ / ١٢٥.
(٥) فتح الباري ١٣ / ١٢٦.
(٦) انظر: تفصيل الحكم في: مغني المحتاج ٤ / ٣٧٣ و كشاف القناع ٦ / ٢٨٨.

عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥].

قال الإمام ابن تيمية: الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله، ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان من أفضل الأعمال الصالحة، حتى روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر»[١].

(١) مجموع الفتاوى ٢٨ / ٦٥، والحديث رواه الترمذي برقم ١٣٢٩ وحسنه، وأحمد ١١١٩٠.

(٦٢) نَصبُ المنصبِ أوهى جسدِي وعنائي من مُداراةِ السَّفلْ

وفي نسخة: «أوهى جَلَدي»، أي قوتي وتحملي.

«نصب»: هو التعب وزناً ومعنى.

«المنصب»: على وزن مسجد، وهو: العلو والرفعة، والمراد هنا الولاية.

«أوهى جسدي»: أي أضعفه.

«عنائي»: العناء هو التعب والمشقة.

«السَّفَلْ»: الأراذل من الناس.

وقيل: هم الذين ليس لهم فعل موصوف، ولا نسب معروف.

والمعنى: أن تعب المناصب، ومشقة المداراة للأراذل، أضعف جسدي، وأصابه بالوهن والإرهاق، وهذا من ضرائب المناصب.

فإذا كانت المناصب إرهاقاً وتعباً لأصحابها، فكيف يحرص عليها العاقل!!!.

(٦٣) قَصّرِ الآمالَ في الدنيا تَفُزْ فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأمَلْ

«قصّر»: من التقصير، وهو جعل الشيء قصيراً، كتقصير الصلاة في السفر، وضده التطويل.

«تفز»: من الفوز، وهو الظفر بالخير مع حصول السلامة.

والمفازة: القفر والصحراء، سميت بذلك تفاؤلاً للفوز.

وتأتي المفازة مصدراً بمعنى الفوز والنجاة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨].

والمعنى: قصر آمالك في طلب الدنيا، وطول البقاء فيها، فإنك بذلك تظفر بالخير والسلامة، وذلك دليل عقل الإنسان وكمال فكره؛ لأن من شأن العاقل ألا يغتر بالدنيا، وألا يسترسل وراء آماله وأحلامه التي لا تنتهي.

واعلم أن الله تعالى جعل الأمل غريزة في النفس، لتستمر حركة الحياة، ويتحقق مراد الله تعالى في عمران الأرض، وتناسل المخلوقات فيها.

ولولا هذا الأمل لما تهنأ أحد بعيش، ولا شرع في عمل من أعمال الدنيا، وهذا طريق الخراب، وسبيل الانقراض.

قال جميل الزهاوي:

يعيش بالأمل الإنسانُ فهو إذا أضاعه زال عنه السعيُ والعملُ

وقال الغلاييني:

إن للآمـــال فــي أنـفــســنا	**لــذةً تنعــش منهــا مــا ذَبَــلْ**
لــذةً يحلــو بهــا الصــبر عــلى	**غمـرات العيـش والخطـب الجلل**

ولكن المذموم هو الاسترسال وراء الأمل، وتطويل حبله، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣].

وطول الأمل يتولد عنه الكسل عن الطاعة، والتسويف بالعمل، والرغبة في الدنيا، ونسيان الآخرة، وقسوة القلب.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:٩-١١].

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عمر -رضي الله عنه-: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» رواه البخاري[1].

قال علي -رضي الله عنه-: «أخوف ما أخاف عليكم اثنان: طول الأمل، واتباع الهوى، فطول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق»[2].

(١) برقم ٦٠٥٣.
(٢) رواه ابن أبي شيبة برقم ٣٤٤٩٥- وابن المبارك في الزهد ٢٥٥- ورواه ابن عساكر مرفوعا في تاريخ دمشق ٥٢/٢٤٣.

(٦٤) إنّ مَنْ يَطْلبهُ الموتُ عَلَى غِرةٍ منهُ جديرٌ بالوَجَل

«غرة»: -بكسر الغين- الغفلة في اليقظة، والغرار: الغفلة مع الغفوة، قاله الراغب.

«جدير»: أي خليق وحقيق وزناً ومعنى.

«الوجل»: هو الخوف، يقال: رجل وجل، وامرأة وجلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر:٥٢-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: خائفة.

وهذا البيت كالتعليل للبيت الذي قبله، والمعنى إنما أمرتك بتقصير الأمل في الدنيا؛ لأنك ميت ومنقول عن هذه الدار قطعاً، ولا تدري أين يكون الانتقال، ومتى يكون الرحيل، فاللائق بك الاستعداد، والخوف من الله تعالى، وعدم الركون إلى الدنيا، قاله القناوي.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا من ذكر هادم اللذات» يعني الموت، رواه الترمذي بسند حسن[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة» رواه الترمذي[٢]، وأصله في صحيح مسلم.

---

(١) برقم ٢٤٦٠- ورواه الحاكم وصححه ٧٩٠٩.

(٢) برقم ١٠٥٤ وقال: حديث حسن صحيح.

قال مالك بن دينار:

أتيــت القبــور فناديتهــا	فأيــن المعظــم والمحتقــرْ
وأيــن المــذلُّ بســلطانه	وأيــن العزيــز إذا مــا افتخــرْ
تفانَــوا جميعــاً فــلا مخــبر	وماتــوا جميعــاً واضحَــوْا عِــبَرْ
وصــاروا إلى ملــك عــادلٍ	عزيــزٍ مطــاعٍ إذا مــا أمــرْ
فيــا سـائلي عــن أنـاس مضَــوْا	أمالــك فيمــن مــضى معتــبرْ[١]

(١) تاريخ دمشق ٥٦/ ٤١٦- العاقبة للإشبيلي ١/ ٢٠٠.

(٦٥) غِب وزُر غبا تزد حُبّاً فَمَنْ أكثَـرَ الـتردادَ أضْنَـاه المَلَـلْ

«غب»: من الغيبة ضد الحضور.

«وزُر»: من الزيارة، وهي قصد المزور إكراماً له، واستئناساً به.

«غبا»: أي يوماً بعد يوم، ومنه حمى الغب؛ لأنها تأتي يوماً وتذهب يوماً.

قال القناوي: «والمراد هنا أن لا تغيب زمناً طويلاً بين الزيارتين».

«أضناه»: أي أمرضه مرضاً ملازماً حتى أشرف على الموت.

«الملل»: هو الضجر وزناً ومعنى، والملالة هي السآمة وزناً ومعنى، وكلاهما بمعنى واحد.

والمعنى: لا تكثر التردد على الناس وزيارتهم، وكن معتدلاً في ذلك؛ لأن كثرة التردد توقع في السآمة والضجر.

وهذا المعنى مأخوذ من المثل المشهور: «زر غباً تزدد حباً»، ويروى حديثاً مرفوعاً[١]، قال ابن حجر: «وقد ورد من طرق أكثرها غرائب لا يخلو واحد منها من مقال...، وقد جمعتها في جزء مفرد»[٢]. قال السخاوي: «وبمجموعها يتقوى الحديث»[٣].

قال بعض العقلاء: «الإفراط في الزيارة ممل، والتفريط فيها مخل».

«ربما كان التقالي في كثرة التلاقي»، «وكثرة التعاهد سبب التباعد».

(١) رواه الحاكم برقم ٥٤٧٧.

(٢) فتح الباري ١٠ / ٤٩٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١ / ٦٦٧.

(٣) المقاصد الحسنة ٣٧٧.

قال ابن الوردي:

أقلل زيارة من تحب لقاءه إن الملال نتيجة الإكثار

وقال الآخر:

عليك بإقلال الزيارة إنها تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا

ألم تر أن الغيث يُسأم دائماً ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

وبوب البخاري في صحيحه: «باب هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشيا»، ثم ذكر حديث عائشة -رضي الله عنها-: «لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر عليهما يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار، بكرة وعشية...»[(١)].

وذكر الحافظ ابن حجر أنه لا منافاة بين هذا الحديث، وما يروى مرفوعاً وموقوفاً «زر غباً تزدد حباً»، فالأخير مخصوص بمن له مودة ثابتة خاصة، فلا ينقص كثرة زيارته من منزلته.

قال ابن بطال: «الصديق الملاطف لا يزيده كثرة الزيارة إلا محبة، بخلاف غيره»[(٢)].

وقال القناوي -رحمه الله-: «وهذا مختلف باختلاف الناس. . .».

(١) صحيح البخاري برقم ٥٧٢٩.
(٢) فتح الباري ١٠ / ٤٩٩.

قال البهاء السنجاري:

إذا حققت من خِلٍّ ودَادًا فزره ولا تخف منه مَلالا

وكنْ كالشمسِ تطلع كل يومٍ ولا تك في زيارتهِ هلالا

والزيارة مستحبة شرعاً، لحديث: «من عاد مريضاً أو زار أخا له في الله ناداه مناد: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا» رواه الترمذي وحسنه[1]، وصححه ابن حبان[2].

وفي الحديث القدسي: «حقت محبتي للمتزاورين فيّ» رواه مالك وأحمد[3]، وصححه ابن حجر.

وعند الطبراني من حديث صفوان بن عسال رفعه: «من زار أخاه المؤمن خاض في الرحمة حتى يرجع»[4].

---

(١) برقم ٢٠٠٨.

(٢) في صحيحه برقم ٢٩٦١

(٣) مسند أحمد برقم ٢٢١١٧- موطأ مالك برقم ١٧١١.

(٤) برقم ٧٣٨٩.

(٦٦) خُذْ بنصلِ السيف واترك غِمدُه واعتبِرْ فَضْلَ الفَتى دُونَ الحُلَل

«نصل السيف»: حده، وجمعه: نصال ونصول، وكانوا يقولون لرجب: (منصل الأسنة)؛ لأنهم كانوا لا يقاتلون فيه، فكأنه أنصلَها، أي: نزع نصلها.

«غمده»: أي وعاءه الذي يدخل فيه، وجمعه أغماد.

«الحُلل»: جمع حُلة -بالضم- ولا تكون إلا ثوبين من جنس واحد.

والمعنى: أن فضل الإنسان في شيمته وأخلاقه، لا في ثيابه وحُلته، كما أن فضل السيف وخطره في حدّه لا في غمده.

وقد أغرب القناوي في شرح هذا البيت، وذهب بعيداً.

وأصل هذا المعنى للمعري حيث قال:

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمدُه والحمائلُ

ودخل أبو أوس العذري على بعض الخلفاء، فازدراه لملابسه البالية، فقال أبو أوس: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها، وكمال الرجل في أدبه لا في ثيابه، ثم أنشد:

إني وإن كانت ثيابي ملفَّقَةً ليست بخزٍّ ولا من نسج كتانِ

فإن في المجد هِمَّاتي وفي لغتي فصاحة، ولسان غير لَحَّانِ

وقال عبد الملك بن عمير: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة أصلعَ الرأس، متراكب الأسنان، مائلَ الذقن، ناتئ الجبهة، جاحظ العينين، خفيف العارضين، ولكنه كان إذا تكلم جلا عن نفسه سائر العيوب.

قال الشاعر:

قل لمن يحسب الثياب على المر ء تعلي المقام أن يتأدبْ

فجواد من غير سرجٍ لَخيرٌ من حمار عليه سرج مُذهّبْ

في شرح القناوي بيت مذكور في هذا الموضع، ومنسوب للناظم، وهو:

لا يضر الفضلَ إقلالٌ كما لا يضرُّ الشمسَ إطباقُ الطَّفلْ

والطَّفل: هو آخر النهار قبل الغروب.

والمعنى: أن الفقر وقلة المال لا يضر الرجل الفاضل، ولا ينقص من قدره، كما أن شدة الطَّفَل وكثرته لا تضرّ الشمس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وهذا البيت ذكره الملاح أيضاً في تخميسه، ولكنه غير مذكور في الديوان.

وقال الأبيوردي:

وكيف يبالي بالملابس ساحب ذيول المعالي وهو للمجد لابس

وقال المبرد:

يا من تلبس أثواباً يتيه بها تيه الملوك على بعض المساكينِ

ما غير الجلُّ أخلاقَ الحميرِ ولا نقشُ البراذعِ أخلاقَ البراذينِ

(٦٧) حُبكَ الأوطَانَ عَجزٌ ظاهِرٌ فَاغـترب تَلـقَ عَنِ الأهْـلِ بَدَلْ

«الأوطان»: جمع وطن، وهو مكان الإنسان ومقره، ومنه قيل لمربض الغنم: وطن.

«عجز»: العجز هو الضعف، من باب ضرب.

«فاغترب»: من الغُربة، وهي البعد عن الأوطان، يقـال: غَرُبَ -بالضم- فهو غريب، فعيل بمعنى فاعل، وجمعه غرباء.

«الأهل»: اختلف في أصل معناه، فقيل: من يجمعك وإياهم نسبٌ وقرابة، كما قال الفيومي، وقيل: الأصل: من يجمعك وإياهم مسكن واحد، واختاره الراغب، وقد يطلق على الزوجة، والأتباع.

«بدل»: البَدَل والبِدْل والبديل بمعنى العوض.

والوقف عليه بالسكون مع كونه منصوباً على لغة ربيعة.

والمعنى: تعلقك بالأوطان ضعف ظاهر لكل أحد، فسافر واغترب عن وطنك تجد بديلاً عن أهلك، وعوضاً عن بلدك، وكسباً للتجارب.

قلت: حب الأوطان غريزة في الإنسان، قضى فيها صباه الرائق، وشبابه الغض، بين أهله وأحبابه، وله فيها ذكريات جميلة، كما قال ابن الرومي:

ولي وطـن آليـتُ ألا أبيعـه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

عهدتُ به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

وحبَّبَ أوطـان الرجـال إليهم مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسدٌ إن بان غودر هالكا

وقال أيضاً:

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصّبا ولبستُ ثوب العيش وهو جديدُ

فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميدُ

بل الإبل أيضاً تحن إلى أعطانها، والطيور تحنّ إلى أوكارها.

قال السخاوي: «ولما اشتاق النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، محل مولده ومنشئه، أنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥] إلى مكة»(١)، ومنه الحديث: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة...»(٢).

فإذا تيسر للإنسان في وطنه تحصيل الفضائل، ونيل الكمالات، وتحقيق المصالح، وقضاء الأوطار فلا حاجة له إلى السفر، فإن السفر لا يخلو من المشاق، ولا يسلم من المفاسد، كما قال صلى الله عليه وسلم: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره، فليعجل إلى أهله» متفق عليه(٣).

فدل الحديث على استحباب قطع السفر، بالرجوع إلى الوطن، إذا تحقق

---

(١) المقاصد الحسنة ١٨٣.

(٢) رواه البخاري برقم ١٧٩٠.

(٣) البخاري برقم ١٧١٠ – مسلم برقم ١٩٢٧.

مقصوده من السفر.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول عند السفر: «اللهم هون علينا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل» رواه مسلم[1].

والوعثاء: -بفتح الواو وسكون العين- هي الشدة.

فدل الحديث على أن السفر فيه شدة وكآبة.

وأما إذا لم يتيسر له ذلك أصلاً، أو على وجه الكمال، فيستحب له السفر لتحصيل ذلك، وتركه -مع القدرة عليه- دليل على عجز الإنسان، وضعف همته.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥].

والله تعالى لم يجمع كل منافع الدنيا في أرض، بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض.

والمسافر يسمع العجائب، ويكسب التجارب، ويجلب المكاسب، ومن فضل السفر أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، وبدائع الأقطار، ومحاسن الآثار، ما يزيده علماً بقدرة الله تعالى وحكمته.

وقد سافر موسى عليه السلام إلى الخضر عليه السلام لطلب العلم، وسافر جابر بن عبد الله الأنصاري، مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس لسماع حديث واحد.

(١) برقم ١٣٤٢.

وقالوا في الأمثال: البركات في الحركات.

قال أحمد بن فارس:

إذا ما ضاق صدرك من بلاد	ترحَّلْ طالباً أرضاً سواها
عجبت لمن يقيم بدار ذُلٍّ	وأرض الله متَّسعٌ فضاها
فذاك من الرجال قليل عقل	بليد ليس يعلم ما طحاها
فنفسك فز بها إن خفت ضيماً	وخلّ الدار تنعي من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ	ونفسك لم تجد نفساً سواها

(٦٨) فبمكثِ الماءِ يَبقَى آسناً وسُرى البدرِ بهِ البدرُ اكتَمَلْ

«آسناً»: على وزن فاعل، ويقال: أسنٌ على وزن طرب.

والآسن هو: الآجن وزناً ومعنى، أي المتغير طعماً أو رائحة، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد:١٥].

«سُرى»: والمسرى والإسراء هو السير ليلاً، يقال: سرى يسرى، وأسرى يُسرى، والألف لغة أهل الحجاز، وجاء القرآن بهما جميعاً، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١]، وقوله: «ليلاً» من باب التأكيد كقولهم: «سرت أمس نهاراً، والبارحة ليلاً»، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر:٤].

والمعنى: أن الماء الصافي يتغير بالمكث وعدم الحركة، وينتن ريحه بسبب ذلك، وكذلك القمر والهلال لا يكون بدراً، ولا يكتمل نوره، إلا بالحركة والانتقال في بروج السماء.

وهذان مثلان يوضح بهما الناظم ما سبق ذكره في البيت السابق، من الأمر بالغربة ومفارقة الأوطان، وما فيهما من الفوائد.

قال الشاعر:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصبِ

ما في المقام لذي لب وذي أدب من راحة فاترك الأوطان واغتربِ

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطبِ

وقال ابن قلاقس:

سافر إذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا

والماء يكسبُ ما جرى طيباً ويخبثُ ما استقرا

وهناك أمثلة أخرى ذكرها الشعراء منها:

قَوِّضْ خيامَك عن أرض تُهانُ بها وجانب الذُّلَّ إن الذل يُجتنبُ

وارحل إذا كان في الأوطان منقصةٌ فالمندَلُ الرَّطبُ في أوطانه حطبُ

ومن جميل الأمثال قول الشاعر، ويُنسب للشافعي:

ارحل بنفسك عن أرضٍ تُضامُ بها ولا تكن بفراق الأهل في حرقِ

الكحلُ نوعٌ من الأحجار منطرحاً في أرضه كالثرى يبدو على الطرقِ

لمَّا تغرب نال العز أجمعَه وصار يُحمل بين الجفن والحدقِ

ومن أشهر من طاف الأرض، وجاب الآفاق: الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، ويسمى كتاب «روجار» باسم حاكم صقلية؛ لأنه ألفه لأجله.

وهو الذي يقول:

ليت شعري أين قبري ضاع في الغربة عمري

لم أدع للعين ما تشتاق في برٍ وبحرِ[1]

(١) انظر: الوافي بالوفيات ١/ ١٣٨.

(٦٩) أيهـا العائـبُ قَـولي عَبَثـاً إنَّ طيـبَ الـوردِ مُـؤذٍ بالجُعَـل

«العائب»: والعياب هو الذي نسب الشيء إلى العيب، وهو النقص والذم.

«عبثاً»: العبث هو اللعب والعمل الذي لا فائدة فيه، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون:١١٥].

«الورد»: أصله نَوْرُ كل شجر، ثم اختص بمعين معروف طيب الرائحة.

«الجعل»: على وزن «فُعل»، وجمعه جعلان، دويبة من نوع الحشرات، لها رائحة منتنة، يقال: إنها الحرباء، وذكر أم حُبين.

والمعنى: إن المعاني التي ذكرتها لك في هذه القصيدة صحيحة وطيبة؛ لأنها مستقاة من مشكاة الشريعة، وتجارب العقلاء، ولا يعيبها إلا من كان العيب فيه، كما أن الجُعل يتأذى بالورد ويعيبه.

وهو يخاطب أناساً ليس لهم عمل إلا التقليل والطعن من أعمال الآخرين.

وهذا كابن الرومي الذي كان يقبح الورد ويذمه؛ لأن به حساسية منه، وكان يزكم من رائحته، وله أبيات عديدة في ذم الورد!!!

قال الشاعر:

ومـن يـك ذا فـم مـرٍ مريـضٍ يجـد مـرّاً بـه المـاءَ الـزلالا

وقال المتنبي:

وكم من عائب قـولاً صحيحاً وآفتـه مـن الفهـم السـقيم

ولكـن تأخـذ الآذان منـه علـى قـدر القرائـح والعلـوم

(٧٠) عَدِّ عن أسهمِ لفظي واستتر لا يُصيبنَّك سَهمٌ من ثُعَلْ

«عدِّ»: أمر من التعدية، وهي المجاوزة، وذهب القناوي إلى أنه أمر من العود وهو الرجوع، وحرك بالفتح لأجل النظم، والأول أصح.

«أسهم»: الأسهم والسهام جمع سهم، وهو واحد النبال.

«ثعل»: بضم الثاء وفتح العين، على وزن عُمر، وهم بطن من قبيلة طيئ، مشهورون بجودة الرمي.

قال الطغرائي:

إني أريد طروق الحي من إضَمٍ وقد حماه رماة من ثُعَلِ

وقال آخر:

وحيٌّ من كنانة قد رموني بما حوت الكنانة من سهام

إذا انتضلوا وما ثعل أبوهم رموك بكل رامية ورامي

والمعنى: تجنب عداوتي، واحترز من العدوان علي؛ لأنني أجيد الكلام كما يجيد بنُو ثعلٍ الرماية، وألفاظي كالسهام في خطورتها وتأثيرها.

وممن اشتهر بجودة الرماية: عُضَل والديش ابنا الهون بن خزيمة، ويقال لهم «القارة»؛ لاجتماعهم والتفافهم، وهم رماة الحدق في الجاهلية.

قال شاعرهم:

قد أنصف القارة من راماها

إنـا إذا مـا فـئـة نـلـقـاهــا

نـرد أولاهــا عـلى أخراها

ومن المشهورين بجودة الرماية: ابن تِقنْ رجلٌ من عاد، كان أرمى من تعاطى الرمي في زمانه، وفيه المثل: أرمى من ابن تقن.

(٧١) لا يغرنك لينٌ من فتى إن للحياتِ ليناً يُعتزلْ

«لا يغرنك»: أي لا يخدعنك، يقال: اغتر الرجلُ، واغتر بالشيء، أي: خدع به.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]، والغرور كل ما يغرّ الإنسان، من مال أو شهوة أو شيطان.

«لين»: اللين ضد الخشونة، والأصل استعماله في الأجسام، ثم يُستعار للمعاني، فيقال: فلان لين، وفلان خشن، وكل منهما يستعمل مدحاً أحياناً، وذماً أحياناً، بحسب اختلاف المواقع والسياق.

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر:٥]، أي من نخلة ناعمة.

«للحيات»: جمع حية وهي الأفعى، تقال للذكر والأنثى، والهاء للإفراد كبطة ودجاجة، تقول: هذا حية، وهذه حية.

ومن المجاز: فلان حية الوادي، إذا كان يحمي حوزته بقوته.

والمعنى: لا يخدعنك لينُ بعض الناس، ونعومة أخلاقهم، وحسن كلامهم، فإنهم أشرار في الحقيقة، ولين ظاهرهم كلين ملمس الحيات، ونعومة جلدها، وتحت ذلك الموت الأحمر، والسمّ الأصفر.

وهذه دعوة من الناظم إلى الحذر من الأشرار، والبعد عن الفجار، الذين يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب.

(٧٢) أَنَـا مِثـلُ المـاءِ سـهلٌ سَـائغٌ ومتـى سُـخّن آذى وقَتَـلْ

«سائغ»: يقال: ساغ له الشراب والطعام، أي سهل مدخله في الحلق، وهذا ماء سائغ وسيغ، كما قال عويف القوافي:

فسوف أجزيك بشربٍ شُربا لا سيغاً ولا هنياً عذبا

وقال تعالى: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، وقال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧]، أي من الإساغة.

«سُخن»: أي بالنار فصار ساخناً، أي: حاراً، والخاء في الماضي مثلثة.

والسخينة: حساء عملته قريش في قحطٍ فنُبزوا به، كما قال كعب بن مالك:

زعمت سخينةُ أن ستغلبُ ربَّها وَلَيُغْلَبَـنّ مُغالـب الغـلاب

والتساخين: الخفاف، مفرده: تَسْخان، وتسخن على وزن جعفر، حكاه المبرد، وقيل: لا واحد لها من لفظها.

«آذى»: أصابه بالأذى وهو الضرر والمكروه، ويقال الإيذاء أيضاً، والاسم منه الأذية، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾[التوبة:٦١]، وقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي ضرر ومكروه في الشرع والطب، وقيل بمعنى المستقذر.

«وقتل»: من القتل وهو إزهاق الروح، وإزالتها بغير الطريقة الطبيعية، ولكن بالاعتداء عليها بآلة ونحو ذلك.

والموت هو: خروج الروح من البدن بالطريقة الطبيعية.

وعلى هذا قول الله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والمعنى: أنا مثل الماء في السهولة والليونة والانتفاع، ولكني مع أهل الإيذاء والشر كالماء إذا سخن يضر المتعرض له ويؤذيه ويقتله في الحال.

وهذا مأخوذ من قول عنترة في معلقته:

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني سمحٌ مخالقتي إذا لم أُظلمِ

فإذا ظُلمتُ فإن ظلمي باسلٌ مُرّ مذاقته كطعم العلقمِ

(٧٣) أنـا كالخيـزور صعْبٌ كـسْرُهُ وهـو لـدنٌ كيفـما شـئتَ انفتلْ

وفي نسخة القناوي: «أنا كالخيزران» وهو خطأ، وفي الديوان: «كالخيروز» بالراء المهملة ثم الواو ثم الزاي، وهو خطأ أيضاً، والصواب: الخيزور بالزاي المعجمة ثم الواو ثم الراء.

«الخيزور»: هو الخَيْزُران على وزن فيعلان بضم الزاي، وهو نوع من الشجر تستعمل أغصانه وعروقه في صنع الرماح؛ للينه وصعوبة كسره، ولهذا تشبه به القدود، فيقال: «كأن قدّها غصن بان، أو قضيب خيزُران»، والجمع خيازر.

«وهو لدن»: وفي نسخة «وهو لين».

واللُّدن: هو اللين، واللُّدن -بالضم- جمع، واللدانة واللدونة: الليونة، ويقال: فلان لدنُ الخليقة، أي لين العريكة.

«كيفما»: أي على أي حالة، و «ما» زائدة.

«انفتل»: أي انصرف، يقال: فتلته عن حاجته أي صرفته فانفتل، وانفتل عن الصلاة، أي انصرف عنها.

وقد جعله الزمخشري من المجاز[١].

والمعنى: أنا لين الأخلاق، سهل المعاملة، ولكني مع ذلك صعب المراس، وصلب العود لمن أراد كسري وأذيتي، كما أن عود الخيزران لين في يديك تصرفه كيفما تشاء، ولكنه صلب يصعب عليك كسره.

وهذه أمثلة متعددة ضربها الناظم، للإشارة إلى أن المسلم الحق يتصف

(١) أساس البلاغة ٣٣٣

بصفتين عزيزتين لا تناقض بينهما:

الأولى: التسامح والتواضع لأهل الخير والصلاح.

الثانية: القوة والصلابة لأهل الكفر والشرك.

فالمؤمن يتواضع لإخوانه المؤمنين، ولا يرى نفسه عالية عليهم، وهو في الوقت نفسه يرفض الذل، ويأنف من الإهانة، ويكون صلباً قوياً مع الكفار والأشرار.

قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وقال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة والنحلة، والنخلة لها ثمرة ينتفع بها، وشوكة يستضر بها، والنحلة كما هي لينة، رفيقة مع الأزهار، لها شوكة وإبرة تقاتل بها المعتدي.

قال أبو الفتح البستي:

لا يغرنك أنني ليّن اللمس فغربي إذا انتضيتُ حسامُ

أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكامُ

(٧٤)	غيرَ أني في زمان من يكُن	فيه ذا مالٍ هُوَ المَولى الأجَلْ
(٧٥)	واجبٌ عند الورى إكرامُه	وقليلُ المالِ فيهم يُستقلْ

«المولى»: لفظ مشترك بين معاني عديدة، منها: ابن العم والناصر والعبد والسيد والحليف، وهو الذي يقال له: مولى الموالاة.

والأقرب هنا: السيد.

«الأجل»: والجليل من الجلالة، وهي العظمة، تقول: جلّ فلان يجل، أي: عظم، وجلّ فلان في عيني، أي: عظم.

وقال الراغب: «الجَلالة: عظم القدر والجلال بغير الهاء: التناهي في ذلك، وخصّ بوصف الله تعالى فقيل: ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، ولم يستعمل في غيره، والجليل: العظيم القدر»[١].

«الورى»: الخلق.

والمعنى: أن الله تعالى أكرمني بصفات حسنة، وشمائل فاضلة، ذكرت لك بعضها في القصيدة، لكنني كاسد السوق، ليست لي وجاهة عريضة عند الناس؛ لأنني أعيش في زمان انقلبت موازين الناس فيه، فالمقدم عندهم الذي يجب إكرامه هو صاحب الأموال والثروات، ولو كان من الجهلة، أما قليل المال فهو محتقر، قليل الجاه، يجب تأخيره ولو كان عالماً فاضلاً.

(١) المفردات، مادة جلل ص٩٤.

قال الشاعر في وصف حالهم:

يغطي عيوبَ المرء كثرةُ ماله   يُصدَّق فيما قال وهو كذوبُ

ويزري بعقل المرء قلَّةُ ماله   يُحمِّقُه الأقوام وهو لبيبُ

(٧٦) كلُّ أهلِ العَصرِ غُمْرٌ وأنا منهمُ فاترك تفاصيل الجُمَلْ

«العَصْر»: والعُصْر والعُصُر هو الدهر، وجمعه عصور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، ويطلق على العشي، ومنه صلاة العصر.

«غمر»: الغمر -بضم الغين وسكون الميم- هو من لم يجرب الأمور، وجمعه أَغْمار، والغِمْر -بالكسر- الحقد وزناً ومعنى، والغَمْر -بالفتح- الكثير الواسع. قال المغربي:

الغَمر ماء غزرا والغِمر حقد سترا

والغُمر ذو جهل سرى فيه ولم يجربِ

والغَمرة: الغفلة والجهالة ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات:١١].

والمعنى: جميع أهل زماني متصفون بقلة العلم والتجربة، وأنا منهم متصف بهذه الصفات، فاكتف بهذا ولا تبحث في تفصيل هذا الكلام، وإياك وتتبع عيوب الناس، وأحوال الخلق، فإنه مضيعة للعمر فيما لا ينفع، واجتهد في إصلاح عيوبك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[١].

(١) رواه الترمذي برقم ٢٣١٧- وابن ماجة برقم ٣٩٧٦.

وقال بعض السلف: «طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس».

قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلاً ورعاً اشغله عن عيوب غيره ورعُه

كما العليل السقيم أشغله عن وجع الناسِ كلِّهم وجعُه

وقال المعري:

عيوبي إن سألت بها كثيرة وأي الناس ليس له عيوبُ

وللإنسان ظاهرُ ما يراه وليس عليه ما تخفي الغيوبُ

وقد ذكر القناوي في آخر شرحه ثلاثة أبيات ليست من القصيدة، ولا هي من كلام الناظم وهي:

وصلاة وسلام أبداً للنبي المصطفى خير الدُّوَلْ

وعلى الآل الكرام السُّعدا وعلى الأصحاب والقومِ الأُوَلْ

ما نوى الركب بعشاق إلى أيمنِ الحيِّ وما غنّى رملْ

وهذا آخر ما تيسر من شرح هذه اللامية المشتملة على باقة من المعاني الحسنة، والأخلاق الكريمة، أسأل الله تعالى أن يرزقنا أحسن الأخلاق، ويوفقنا إلى أجمل الشمائل، إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا وآله وصحبه.

كتبه العبد الفقير إلى رحمة ربه

د. مصطفى مخدوم

٢٠ / ١٢ / ١٤١٨هـ

لامية ابن الوردي

(١)	اعتـزِلْ ذكـرَ الغـواني والغزلْ	وقـلِ الفصْـلَ وجانبْ مـن هزلْ
(٢)	وَدَعِ الذكـرى لأيـام الصِّبـا	فلأيـامِ الصِّبـا نَجـمٌ أفَـلْ
(٣)	إن أحـلى عِيشـةٍ قضَّيتَهـا	ذهبـتْ لذَّاتُهـا والإثـمُ حَـلّْ
(٤)	واتـركِ الغـادةَ لا تحفَـلْ بهـا	تُمْـسِ في عـزٍّ وتُرفـعْ وتُجَـلّْ
(٥)	والْـهَ عـن آلـة لهـوٍ أطربـت	وعـنِ الأمـردِ مُرْتَـجِّ الكَفَـلْ
(٦)	إن تبدّى تنكسف شمس الضحى	وإذا مـا مـاس يُـزْري بالأسَـلْ
(٧)	زاد إن قسـناه بالبـدر سـنا	وعدلنـاه بغصـن فاعتـدلْ
(٨)	وافتكر في منتهى حسن الذي	أنـت تهـواه تجـد أمـراً جلـلْ
(٩)	واتـقِ اللهَ فتقـوى الله مـا	جـاورتْ قلْبَ امـرئٍ إلّا وصَلْ
(١٠)	ليـسَ مـن يقطـعُ طرْقـاً بَطَلاً	إنـما مَـنْ يتـقِ اللهَ البطـلْ
(١١)	واهْجُـرِ الخمْـرةَ إن كنتَ فتىً	كيفَ يَسْـعى في جُنـونٍ مَنْ عَقَلْ
(١٢)	صـدِّقِ الـشَّرعَ ولا تركن إلى	رجـلٍ يرصُـدُ بالليـل زُحَـلْ
(١٣)	حَـارتِ الأفكارُ في قُـدرةِ منْ	قَـدْ هَدانـا سُـبُلاً عَـزَّ وجَـلْ
(١٤)	كَتَـبَ الموتَ عـلى الخلقِ فكمْ	فَـلَّ مِـنْ جمـعٍ وأفنـى مـن دُوَلْ
(١٥)	أيـن نمـرودُ وكنعـانُ ومـنْ	مَلَـكَ الأمـرَ وولَّى وعَـزَلْ
(١٦)	أيـن عـادٌ أيـن فرعـونُ ومَـنْ	رَفَـع الأهـرامَ، مـن يسـمعْ يَخَلْ
(١٧)	أَين منْ سادوا وشـادوا وبَنَوا	هَلَـكَ الـكُلُّ ولم تُغـنِ القُلَـلْ
(١٨)	أيـن أربـاب الحِجـا أهـلُ النهـى	أيـن أهـلُ العلـمِ والقـومُ الأُوَلْ
(١٩)	سـيعيد اللهُ كلاً منهـمُ	وسـيجزي فاعـلاً مـا قـد فَعَـلْ

(٢٠) أَيْ بُنَـيّ اسـمعْ وصايا جَمعتْ حِكـماً خُصّـتْ بهـا خـيرُ المِلَـلْ
(٢١) اطْلـبِ العلْـمَ ولا تكْسَـلْ فَما أَبْعَـدَ الخـيرَ عـلى أهـلِ الكَسَـلْ
(٢٢) واحْتفـلْ للفقـهِ في الدين ولا تَشْـتغلْ عنـه بـمالٍ أو خَـوَلْ
(٢٣) واهْجُرِ النـومَ وحَصِّلـهُ فمنْ يَعْـرفِ المطلـوبَ يحقـرْ مـا بذلْ
(٢٤) لا تقـلْ قـد ذَهبـتْ أربابُـه كُلُّ من سَـار على الـدربِ وصَلْ
(٢٥) في ازديـادِ العلمِ إرغـامُ العِدَا وجمـالُ العلـمِ يـا صـاحِ العمـلْ
(٢٦) جَمِّـلِ المنطـقَ بالنحـوِ فَمَـنْ يُحْـرمِ الإعـرابَ بالنطـقِ اخْتبـلْ
(٢٧) انظِـمِ الشـعْرَ ولازمْ مذهبـي فاطِّـراحُ الرفْـدِ في الدنيـا أقـلْ
(٢٨) فهو عنـوانٌ عـلى الفضل وما أحسـن الشـعر إذا لم يُبتـذلْ
(٢٩) مات أهل الجود لم يبقَ سـوى مُقرفٍ أو من عـلى الأصل اتَّكَلْ
(٣٠) أنـا لا أختـار تقبيـلَ يـدٍ قطعُهـا أجمـلُ مـن تلـك القُبَـلْ
(٣١) إن جَزَتْني عن مديحي صرتُ في رقِّهـا أو لا فيكفينـي الخجَـلْ
(٣٢) أعذب الألفاظ قولي لكَ «خُذ» وأمـرُّ القـول نُطقـي بِلَعَـلْ
(٣٣) مُلـك كِسرى تُغنى عنه كسرةٌ وعـن البحر ارتشـافٌ بالوشـلْ
(٣٤) اعتـبرْ «نحـنُ قسـمنا بينهم» تلقَـهُ حقـاً وبالحـقِّ نـزلْ
(٣٥) ليـسَ ما يحوي الفتى مـن عزمِهِ لا ولا مـا فـات يومـاً بالكسـلْ
(٣٦) اطـرح الدُّنيـا فمِـنْ عاداتهـا تخفـض العـالي وتُعلي من سَـفَلْ
(٣٧) عيشـةُ الزاهـدِ في تحصيلهـا عيشـةَ الجاهـدِ، بـل هـذا أذلْ
(٣٨) كـم جهـولٍ وهـو مُثـرٍ مُكثرٌ وَعَليـمٍ مَـاتَ مِنهـا بالعِلَـلْ
(٣٩) كَمْ شجاعٍ لَم ينلْ مِنها الـمُنى وجبـانٍ نَـالَ غايـاتِ الأمَـلْ

(٤٠) فاتْـركِ الحيلـةَ فيهـا واتئـدْ إنـما الحيلـةُ في تَـركِ الحيـلْ

(٤١) أيُّ كـفٍ لم تنـلْ منها الـمُنى فرماهـا اللهُ منـه بالشَّـللْ

(٤٢) لا تقـل أصـلي وفصـلي أَبـداً إنـما أصـلُ الفتى مـا قـد حَصَلْ

(٤٣) قـد يسـودُ المـرءُ مِن غَـيْرِ أبٍ وبُحسـنِ السَّـبكِ قد يُنفَى الزَّغلْ

(٤٤) وكـذا الـوردُ من الشـوك وما ينبـتُ النرجِـسُ إلا مـن بَصَـلْ

(٤٥) مَـعَ أنّي أحْمَـدُ الله عـلى نَسَـبي إذ بِـأبي بكـرِ اتصـلْ

(٤٦) قيمـةُ الإنسـان مـا يُحسـنُهُ أكثَـرَ الإنسـانُ منِـهُ أو أقـلْ

(٤٧) اكتُـم الأمريـنِ فقـراً وغنـى واكسِبِ الفَلْسَ وحاسبْ من بطلْ

(٤٨) وادَّرع جـداً وكـداً واجتنـب صُحبةَ الحَمْقَى وأرباب الخَللْ

(٤٩) بَـيْن تبذيـرٍ وبُخـل رُتبـةٌ فـكلا هذيـنِ إن زادَ قتَـلْ

(٥٠) لا تَخُض في سبّ ساداتٍ مضَوْا إنهـم ليسـوا بأهـلٍ للزَّلـلْ

(٥١) وتَغَافَـلْ عـن أمـورٍ إنـهُ لم يفُـز بالحمـدِ إلا مـن غَفَـلْ

(٥٢) ليـسَ يخلوُ المرءُ مـن ضِدٍ وَلَو حَـاولَ العُزلـةَ في رأسِ جَبـلْ

(٥٣) غِبْ عـن النمام واهجُـرهُ فما بلـغ المكـروه إلا مـن نقـلْ

(٥٤) دَارِ جـارَ الـدارِ إن جَـار وإنْ لم تجـدْ صَـبْراً فـما أَحـلى النُّقَـلْ

(٥٥) جَانِبِ السُّلطَانَ واحذر بَطشَهُ لا تُخَاصِـم مـن إذا قَـالَ فَعَـلْ

(٥٦) لا تلِ الحكم وإن هم سألوا رغبـةً فيـكَ وخالِـف مـن عَذَلْ

(٥٧) إنِّ نصفَ الناسِ أعداءُ لمنْ ولِيَ الأحـكامَ هـذا إن عَـدَلْ

(٥٨) فهـو كالمحبـوسِ عـن لَذاتـه وَكلا كَفّيـهِ في الحـشر تُغـلْ

(٥٩) إنـما النقـصُ والاسـتثقالُ في لفظـةِ «القـاضي» لوعْـظٌ ومَثَـلْ

(٦٠)	لا تُوازي لـذةُ الحكم بـها	ذَاقَـهُ المـرءُ، إذا المـرءُ انعَـزَلْ
(٦١)	فَالولايـاتُ وإن طَابـت لمـن	ذَاقَهـا فَالسـمُّ في ذاكَ العَسَـلْ
(٦٢)	نَصبُ المنصبِ أوهى جسدِي	وعنائـي مـن مُـداراةِ السَّـفلْ
(٦٣)	قَصّرِ الآمالَ في الدنيا تَفُزْ	فدليـلُ العقـلِ تقصـيرُ الأمَـلْ
(٦٤)	إنّ مَنْ يَطْلبهُ الموتُ عَلَى	غِـرةٍ منـهُ جديـرٌ بالوَجَـل
(٦٥)	غِب وزُر غبا تزد حُبّاً فَمَنْ	أكثـرَ الـتردادَ أَضْنَـاه المَلَـلْ
(٦٦)	خُذْبنصلِ السيف واترك غِمدُه	واعتـبرْ فَضْلَ الفَتـى دُونَ الحُلَل
(٦٧)	حُبكَ الأوطَانَ عَجزٌ ظاهِرٌ	فَاغـترب تَلـقَ عَـنِ الأهْـلِ بَدَلْ
(٦٨)	فبمكـثِ المـاءِ يَبقَـى آسـناً	وسُرى البـدرِ بـهِ البـدرُ اكتَمَـلْ
(٦٩)	أيهـا العائـبُ قَـولي عَبَثـاً	إنَّ طيـبَ الـوردِ مُـؤذٍ بالجُعَـل
(٧٠)	عَدِّ عن أسهمِ لفظي واستتر	لا يُصيبنَّـك سَـهمٌ مـن ثُعَـلْ
(٧١)	لا يغرنـك لـينٌ مـن فتـى	إن للحيـاتِ لينـاً يُعتـزلْ
(٧٢)	أنَـا مِثـلُ المـاءِ سهلٌ سَـائغٌ	ومتـى سُـخّن آذى وقَتَـلْ
(٧٣)	أنـا كالخيـزور صعْبٌ كـسْرُهُ	وهـو لـدنٌ كيفـما شئتَ انفتلْ
(٧٤)	غـيرَ أني في زمـان مـن يكُـن	فيـه ذا مـالٍ هُـوَ المَولى الأجَـلْ
(٧٥)	واجـبٌ عنـد الـورى إكرامُه	وقليـلُ المـالِ فيهـم يُسـتقلْ
(٧٦)	كلُّ أهـلِ العَـصرِ غُمْـرٌ وأنـا	منهـمُ فاتـرك تفاصيـل الجُمَـلْ

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة